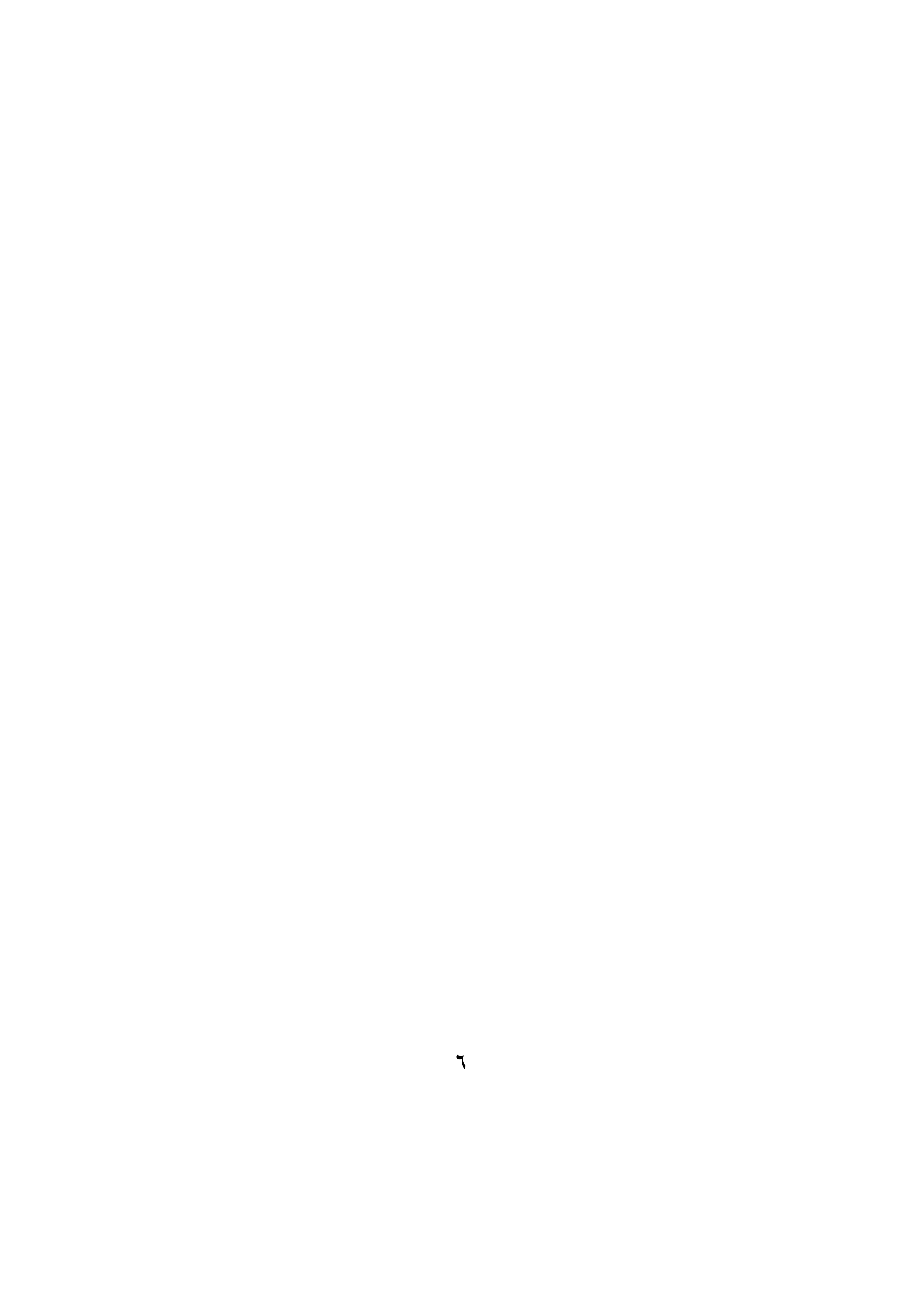
أبي؛ إليه أهدي ذا الكتاب.
أبي؛ الذي عمل صابرًا مجتهدًا طوال حياتي كي يزداد علمي ويرتفع شأني
أبي؛ أول من أهداني كتابًا في طفولتي وفاتح بوابة المعرفة الذهبية
الله أسأل أن يمتعك بالصحة والرضىٰ في كل زمان ومكان.



الحق الذي لا مجاز فيه:

أن الله موجِبٌ. والنبي مُخبرٌ. والعقل مُعرِّفٌ. والطبع باعثٌ. والمعجزة مُمكِّنة من التعريف.

الإمام الغزالي



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

فإن قضية (التسليم بصحة النظرية التطورية) هي الباب الرئيسي لعلوم أحياء العصر الحالي عند جمهور العلماء الأحيائيين، بل ولغيرها من مجالات العلوم، وهذا أمر حادث من قديم طوال أكثر من القرن وليس بالجديد. وتجاهلها أو التسخيف منها والتحقير من شأنها أو التبشير بشيء هو خلاف الواقع لإراحة الجماهير: مثل أنها في انحسار أو أنها قد تهدمت أو أنها قد صارت أثرًا بعد عين -هو هروب خاطئ! فأول مبادئ معالجة أي مشكلة وسبر أي قضية هو الاعتراف بحجمها وعدم التهوين من شأنها وهيمنتها، أن ترىٰ هذه المشكلة بصورة حقيقية لا مزيفة. لذا فنحن نسلم في هذا الكتاب بمقدمة كونها هي المشتهرة المقبولة بين العلماء والنظرية السائدة وذات الأدلة الأقوىٰ في حال تغييب الإله من سردية نشأة الكون!

لكننا كذلك سنبين في هذا الكتاب أنه من الخطأ الاحتكام إلىٰ سلطة المشهور في علم الأحياء، لأن هذا أولًا: احتكام إلىٰ سلطة السائد في مسألة سنثبت غياب الإجماع من علمائها عليها. وثانيًا:

لا يغيب عن هذا المشهور التحيز أو شبهة التحيز عند معتنقيها لأنه لا يوجد عندهم أي تفسير علمي مادي لا ربَّاني منطقي غير هذه النظرية! وسنمر بهذا في الكتاب.

ولا يُقال أننا وقعنا في هذه المغالطة بأن احتكمنا لسلطة كذلك؛ ألا وهي سلطة الاحتكام للنص القرآني والحديث النبوي وهو ما يخدم السرد الخلقوي؛ فإننا سنتحدث داخل الكتاب في سياق تداولي علىٰ أساس أن المُخاطَب مؤمن يُسلِّم بحجية القرآن والسنة. أما إن كان ملحدًا فليست كل الحجج التي نقولها يمكنه قبولها بل يمكن أن يتحجج بأننا نصادر علىٰ المطلوب أصلًا بافتراض حقيقة وجود إله للكون!

وإن كان ممن لا يرون حجية القرآن أو السنة أو واحد منهما -فهذا يمكنه التحجج بأننا نصادر عليه بافتراض وجوب حجية القرآن أو السنة أو كليهما!

فهذا وذاك خارجان عن نطاق هذا البحث أصلًا، ويحتاجان لمباحث أخرىٰ ابتدائية تمهد لهما الدخول لنسق السياق التداولي الذي يمارس هذا الكتاب المحاجَّات في نطاقه، وليست هذه المباحث والجدالات داخلة في مناقشات هذا الكتاب أصلًا وإنما فرعًا.

هذا مبدأ يجب استيعابه قبل الشروع في قراءة هذا الكتاب؛ فالشريحة المستهدفة منه ليست الملاحدة أو من يشككون في حجية السنة. كذلك ليس المستهدف من هذا الكتاب طلبة علوم الأحياء المتقدمين لرأي خاص عندي أن طالب علم الأحياء المتقدم لابد أن

يطلع علىٰ النقاشات الكبرىٰ والمتخصصة باللغة الإنجليزية ولا ينشغل بمسألة التعريب؛ ليس استهانةً بشأن اللغة العربية ولكن لأن طالب علوم الأحياء الذي يحصر استيعابه علىٰ المدوَّن العربي الأحيائي بينما العرب لا يكاد إسهامهم في هذا المجال يمثل شيئًا يذكر علىٰ مستوىٰ التاريخ القريب أو الواقع -سيعاني كثيرًا أو ينعزل في غيتو بعيدًا عن آلاف الأبحاث العلمية المنشورة بالإنجليزية، لغة العلوم المعاصرة.

إذن فالجمهور المستهدف تحديدًا: شريحة المسلمين المؤمنين بحجية القرآن والسنة من غير المتخصصين في علوم الأحياء بمختلف أنواع جزئياتها وكلياتها/ولكنهم إما يريدون التعرف علىٰ النظرية وسجالاتها بصورة مبسطة، أو أنهم قد تعرضوا لشبهة جعلت النظرية تتمكن من عقولهم. وكذلك شريحة طلاب علوم الأحياء غير المتقدمين جدًا فيها. ولا يعني هذا أن الكتاب لن يقنع تلك الشرائح العلمية غير المستهدفة: لكنهم قد يعتبرون لغته مبسطة جدًا واستعراضه للقضية موجز مختصر بينما تحتاج إلىٰ آلاف الصفحات للرد علىٰ الأقل!

أما البحث فقد وُضِع لا للرد علىٰ أطروحة الداروينية بذاتها مطلقًا: إنما للرد علىٰ أطروحة التطور الموجه إلهيًّا، أو ما أطلقت عليه: الداروينية المتأسلمة. وإيجازه قدر الحاجة وعدم تعمُّقه في المصطلحات العلمية المُركَّبة مقصود لما بيَّنته قبلًا، ولدفع الملل عن القارئ.

والبحث ينقسم لثلاثة أبواب:

الباب الأول استعرضت فيه خلفية القضية ومناقشة سريعة لها

كمدخل لفهم ماهية الداروينية تاريخيًا ومحاولات أسلمتها منذ الشيخ محمد عبده حتىٰ المحاولات المعاصرة، وقد أنهيته بشرح لخطورة التأويل المجازف الذي من لوازمه تجاهل السنة النبوية والطعن بأحاديث الصحيحين والتفاسير المجمع عليها من سلف الأمة بلا خلاف من عهد النبوة إلىٰ الصحابة إلىٰ التابعين إلىٰ تابعي التابعين، إلخ. وقضية التأويل بحر لا شاطئ له والخوض فيه ليس من شأن هذا الكتاب لذا حصل الاكتفاء بالإشارة.

الباب الثاني استعرضت فيه بعض أشهر حجج الداروينميين (أنصار الداروينية المتأسلمة). وسأبيِّن كيفية الاستعراض وسبب إيراد تلك الحجج بل وأهمية هذا الكتاب إجمالًا في ختام الباب الأول. وهي حجج بعضها يصلح للرد علىٰ المؤمنين بالتطور مطلقًا وبعضها لا يصلح إلا للمؤمن بحجية القرآن والسنة.

أما الباب الثالث فهو أكثر صراحةً في مخاطبة من يؤمن بحاكمية الوحيين: القرآن والسنة، وفيه مناقشة صريحة لأفكار الأستاذين د.عبدالصبور شاهين رحمه الله ود.عمرو شريف. وهما من رواد الداروينميين.

أما عما يميز الطبعة الثانية عن الأولىٰ:

فقد تفوقت ببعض أمور مثل إصلاح أغلاط سردية أو علمية نادرة الوقوع لكن توجَّب تعديلها وجزىٰ الله خيرًا من نبهني إليها وعزائي أنها نادرة جدًا نتجت عن التباس في فهم بعض المواضع ولم تغير شيئًا في

سردية الأحداث ومسار الاستدلال وإيراد الحجج. وكذلك بإضافة الأشكال التوضيحية في الباب الثاني وقد طولبت بها ووجدتها ضرورية.

وتميزت كذلك بتخفيف لهجة كان فيها بعض الحدة؛ لكن لوازم هذه النظرية من رد للسنة النبوية والاستهانة بالأحاديث وما رأيناه عمليًا من أنصارهم كان هو السبب الرئيسي لها، ولا أظن هذا يعسر تفهمه علىٰ المتمرس في تلك الجدالات؛ فأسأل الله المغفرة علىٰ كل حال. وكذلك أضفت فصلًا لمناقشة خاصة للراحل د.عبدالصبور شاهين رَحِمَهُ اللهُ وتبيان بعض أمور كان من الضروري إظهارها حتىٰ لمن يروجون لدكتور عبدالصبور كمرجع شرعي لأسلمتهم تلك النظرية!

وقد استفدت كثيرًا ممن سبقني في ولوج هذا الباب ومن نقاشاتهم وجدالاتهم قبل البدء في هذا الكتاب، وأخص بالذكر أخي الكريم محمد خالد الذي أفادتني أبحاثه ومشاوراتي معه في بعض المسائل.

أخيرًا:

فالكتاب كله من مبتدئه لمنتهاه غرضه تثبيت منهج حاكمية الوحي لا حاكمية العلوم الأحيائية وتسلُّط منتسبيها علىٰ الوحيين بالتأويل المتعسف الجائر والاستهانة بتفاسير الصحابة وكافة أئمة السلف أو رد الأحاديث لمجرد موافقة نظرية علمية لا إجماع عليها. فمنهاج أهل السنة لا يوافق هذا المنهاج المعوِّج ونسأل الله أن يغفر لنا ويتجاوز عن أخطائنا ويضع هذا الكتاب في ميزان أعمالنا حتىٰ لو كان ما اجتهدنا في إثباته خاطئًا. فالمقصود الأول هو الذب عن سنة نبيه وأصول استنباط

الرؤية الدنيوية في الأمور الملتحمة بالدين لا محالة كمسألة تطور الإنسان، وهذه قضية طويلة ليست وليدة هذا الزمان بل جذورها ممتدة حتىٰ الأمويين والنزاعات الأولىٰ بين الحاكميتين: العقل والنص. وليس المقصود أبدًا الاستهانة بالعلم الحديث أو المناهج العلمية التجريبية بذاتها مطلقًا. بل ربما يكون الاحترام المبالغ فيه للمنهج التجريبي هو أحد أسباب رفض تلك النظرية، كما سيأتي!

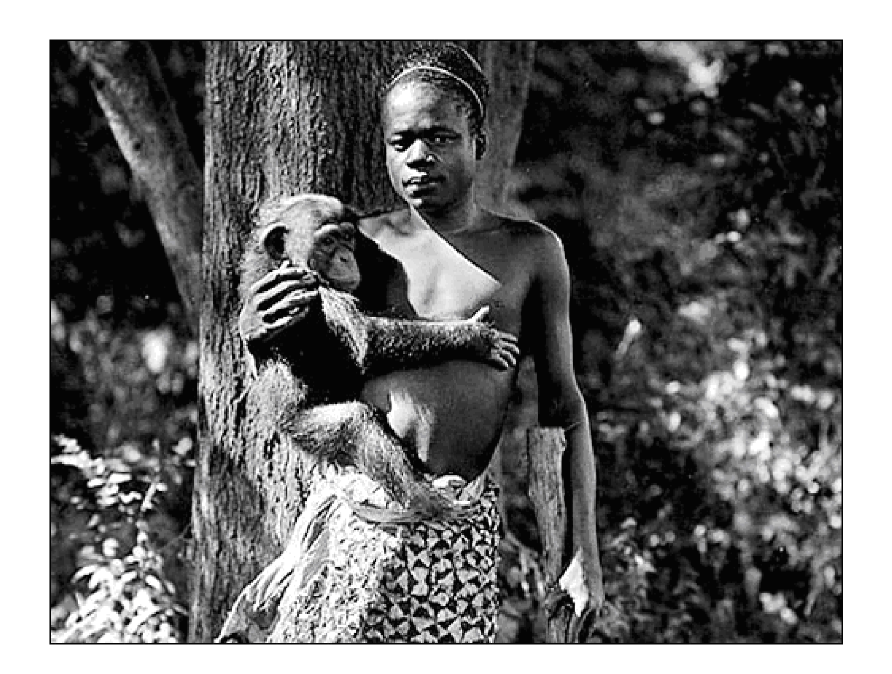
والحمد لله رب العالمين.

عمرو عبدالعزيز

الإسكندرية - الجمعة ٨ مايو ٢٠١٥



مُقَدِّمة



في بدايات القرن العشرين كان أوتا بينغا الكونغولي جالسًا في قفصه مع بعض القردة. الجمهور يتابعه ويشهق منبهرًا. النظرات تحمل التقدير والعرفان لداروين العبقري والعلماء التطوريين العظام الذين أنهوا جدلًا استمر لسنوات!

أوتا بينغا هو أحد الحلقات الوسيطة الحية بين الإنسان والقرد كما

أعلن العلماء التطوريون في انتصار، ينهي الإزعاج المستمر القادم من الخلقويين الذين يرفضون التطور والمتمثل في سؤالهم المؤذي: إن كان التطور حقًا فلابد من وجود حلقات وسيطة تبقىٰ حتىٰ الآن. أين هي؟

التطوريون قاموا بدعم حملة لشراء (أو اصطياد؟) أوتا بينغا وأمثاله. الأمر لا يحتمل المزاح. هذا القرد/الإنسان لابد أن يراه العالم. لابد أن ينتصر العلم التطوري علىٰ المؤمنين الخلقويين الحمقىٰ!

هكذا يجلس أوتا بينغا بنظرة خاملة لم تعد تفهم شيئًا من العالم. يحبسونه في قفص كبير مع أقاربه القرود باعتباره سيتفاهم معهم لأنهم أقرب له من تلك الكائنات البيضاء المتواجدة في أعلىٰ سلم التطور والتي لن تفهم لغته ولن يفهم لغتها!

طفل أبيض يظهر خوفه منه ويعتبر الشيمبانزي أكثر لطافة. بدأ يفهم بعد تلك السنوات تعبيرات هؤلاء القوم. طفل آخر مشاكس يقذف له الموز ويصرخ فيه أن يتحرك ليلتقطه. لابد أن الطفل يسبه الآن. أوتا بينغا الغبي أقل مهارة من الشيمبانزي المجاور الذي جنبه الصراخ الغاضب بالتقاط ثمرة الموز. أخذها ثم صعد إلىٰ صدر أوتا بينغا الذي احتضنه وهو ينظر للجمهور في خمول بينما بداخله يغلي.

أين الحقير الذي أدخل في أدمغة هؤلاء أنه قرد؟ أين هو المتسبب فيما هو فيه؟ سيذبحه إن رآه يومًا. لا يصدق الحمقىٰ أنه إنسان!

لكن العرض مستمر.

بعد عذاب شديد حصل علىٰ حريته. لكنه لم يتحمل. ووجدوه منتحرًا بعد هذا. ربما لم يجد أي فائدة من الجلوس مع هؤلاء القوم البدائيين الهمجيين ولم ينس ما مر به! لقد أنهىٰ حياته فلم يعد يتحمل غباءهم![1].

❁ ❁ ❁

طالب جالس في محاضرة أستاذه بالجامعة. يستمع إلىٰ هراء علمي فخيم لا أول له ولا آخر عن سلف الإنسان الذي هو قرد. ينظر إلىٰ الوجوه من حوله فيجد الأغلبية قد أراحت نفسها! هذا الكلام مطلوب كتابته في نهاية العام لا أكثر ولا أقل! لا مشكلة تستحق المخاطرة بمناقشة الأستاذ الكبير!

فجأة يبدأ الأستاذ في ذكر أمثلة قرآنية! يعتدل الطالب وينتبه الجميع في اضطراب! ماذا يحدث؟

يؤكد الأستاذ أن الداروينية لا تتعارض مع القرآن! بل إنها التفسير الصحيح! ويبدأ في ذكر كتاب لرجل كان من أشرس علماء المسلمين دفاعًا عن الدين ليستدل به: د. عبد الصبور شاهين! ويبدأ في شرح مزايا الداروينية في رد الملحدين عن تركهم للإسلام!

الأمر جلل إذًا! الشباب يضطرب! متىٰ حدثت أسلمة تلك النظرية؟ قد تكون مناسبة للغرب المبني علىٰ العنصرية والمادية

لا للشرق المسلم! مناسبة لمن عرض أوتا بينغا لسنوات في قفص لا لمن تعلم قول ربه (قد كرمنا بني آدم)! من فعل هذا وما هو الغرض؟ يستمر الاضطراب بينما يستمر الأستاذ في الشرح والاستدلال القرآني علىٰ نظريته:

الداروينية المتأسلمة.



البَابُ الأَوَّلُ



منهج المثلث المقلوب

في منتصف القرن التاسع عشر انتهىٰ تشارلز داروين من رحلته عبر بحار العالم، مكونًا نظرية خاصة به تعطي تفسيرًا عقلانيًا غير ميتافيزيقي عن نشأة العالم وتنوع الكائنات.

تقول النظرية ببساطة أن (نشأة الأنواع) والكائنات قد جاءت من أصل وسلف مشترك. خلية تطورت مع الزمان لتصبح كائنات أخرىٰ. ثم الكائنات الأخرىٰ تطورت وتكيفت مع بيئتها لتخرج أنواعًا أخرىٰ تطورت أيضًا وهكذا. نشوء من أصل واحد ثم ارتقاء بالتطور إلىٰ كائنات أخرىٰ[٢].

ومع الوقت تبلورت نظريته وبدأ في إعلان الجزء الأخطر منها: أن الإنسان هو الآخر له سلف مشترك آت من الخلية الأولىٰ وليس مخلوقًا بصورة مباشرة كما تقول الأديان الإبراهيمية، وإن السلف الأقرب لهذا الإنسان هو القرد.

كان هذا بمثابة هدية خيالية للعلوم في القرن التاسع عشر، وهو قرن إلحادي بامتياز -وإن لم يكن داروين نفسه ملحدًا- شعر فيه العلماء أن العلم المادي قادر علىٰ تفسير كل شيء دون الحاجة إلىٰ غيبيات، إلىٰ ميتافيزيقا تعتمد في تفسيراتها علىٰ وجود إله خالق أو قوىٰ خفية، وكان

أي تفسير ينال لقب الـ (علمي) هو ذاك الذي يعتمد علىٰ فلسفات إلحادية صارمة لا غيبية أو إلهية؛ فأصبح أي تفسير علمي عقلاني لابد من أن يضع الطبيعة موضع الإله.

ولأن النظرية جذابة وبسيطة جدًا في ذات الوقت ولم يكن يوجد أفضل منها في هذا الزمان لتبيان تفسير وجود المخلوقات دون تدخل إلهي غيبي؛ فقد راجت وانتشرت وبدأت تترسخ في المناهج العلمية حتىٰ تحولت إلىٰ المركز والنواة الصلبة لعلم الأحياء، بل وكل ما تحته من علوم كالأجناس والإحاثة وغيرها وما تداخل معه كالطب.

هكذا أصبح منكِر نظرية التطور يرفض أحد الأصول الكبرىٰ للعلوم! ينكر نواة فرع ضخم هائل كعلم الأحياء، وبالتالي كان من المنطقي للغاية أن يحدث طلاق صاخب وقتها بين العلم والدين. وكانت العقلانية الإلحادية منحازة لجانب العلم الطبيعي بالتأكيد، وهكذا ظهر القابض علىٰ التفسير الديني للخلق بمظهر المتعصب الدوجمائي المنغلق علىٰ تفسيرات سخيفة واهية لنشأة الكون.

بدأ القرن العشرون علىٰ هذا الحال البائس لسيادة المادية، وترسخ في الغرب مع مرور الوقت عدم إمكانية تلاقي العلوم مع الإنجيل أو التوراة. وبدخول هذه النظرية إلىٰ بلاد المسلمين أضيفت أيضًا أصول الشرع إلىٰ قائمة الأديان غير القابلة لهذه النظرية لصلابة التفسيرات القرآنية والسنية الواضحة في نشأة آدم عليه السلام بالذات. ولم يكن الشيخ محمد عبده المنبهر الكبير بالنموذج الغربي قادرًا علىٰ نشر هذه النظرية

وتقديمها بجدية رغم اعتقاده بإمكانية صحتها وتصريحه بذلك[٣]!

لكن مع مرور العقود في القرن العشرين وتوالي المكتشفات اهتز الإيمان بتفوق العلوم وتفسيرها لكل شيء. بدأ العلم يكشف عن مساحات مظلمة كبيرة لا يقدر علىٰ ولوجها، وبالتالي بدأ اهتزاز الثقة في العقلانية العلمية عامة، والنظرية الداروينية المبسطة خاصة. وكان أن زادت الصعوبة بثبات ارتباط العلم بالتفسيرات المادية الإلحادية واستقرار هذه الهيئة للعلوم تاريخيًا وواقعيًا، علىٰ الرغم من العودة الإيمانية الكبرىٰ علىٰ مستوىٰ العالم والتي تلت خروج السيادة من أوروبا إلىٰ أمريكا، والتي بدأت تظهر فيها تفسيرات توليفية عقلانية مختلفة للعلوم الداروينية تحاول مصالحتها مع الديانة المسيحية واليهودية، وساعد المفسرون المولِّفون حقيقة أن الأديان وحدها هي القادرة علىٰ ملء الكثير من فجوات تلك النظرية التي لم يفلح تطويرها كثيرًا في سد الرقع المتناثرة في كل مكان في ثوبها القديم أو الحديث.

هكذا بدأت الداروينية التطورية تتصالح في وجل مع الدين بقيادة علماء من أشباه القساوسة أو الحاخامات، وظهرت إلىٰ الوجود نظرية (التصميم الذكي) التي يؤمن أغلب دعاتها بالتطور؛ لكنهم يقولون بصنع الله لهذا التطور، ولا تفسير لذلك التعقيد الهائل في الكائنات والذي يُحيِّر التطوريين الملحدين إلا بوجود خالق يقود هذه العملية.

كان من الطبيعي أن الإلحاد سيتشبث بأطروحته العلمية المادية ويسخر من تلك العودة العجائبية للعلوم إلىٰ أحضان الدين بقيادة عقلانية

جديدة. ومع مرور الوقت ظهر أن جانب العقلانية -ونعني بها هنا تقديم تفسير متماسك عقلًا- يميل جدًا إلىٰ جانب أنصار (التصميم الذكي) بينما ظل الجانب العلمي -ونعني به هنا العلم المؤسس علىٰ المادية وتغييب الإله- ظاهره في جانب تأييد التفسيرات المادية والإلحادية مهما كانت واهية، وكان هذا طبيعيًا بالتأكيد لغلبة العلماء الكبار وهيمنتهم العددية والمركزية، والذين نشأوا منذ الصغر علىٰ نظريات التطور الإلحادي كحقيقة ثابتة فحاولوا قدر الإمكان تقديم تفسيرات معقولة لسرديات التطور المادي وتحسينها ونفي إمكان أي تفسير آخر، مهما كان معقولًا!

بذا يمكن القول بحدوث طلاق بين العقلانية والعلم كذلك، بمعنيهما المذكور قبلًا!

وكانت محاولة تزويج الدين للعلم المادي هي السبب الحقيقي وراء هذا الانفصال؛ فأصبحت المعركة بين عقلاني يريد نصرة دينه باستمرار مصالحته علىٰ تلك النظرية العلمية، وبين ملحد يزعم أن الطلاق الحادث بين الدين والعلم منذ القرن التاسع عشر كان بائنًا بينونة كبرىٰ بلا رجعة!

وخارج تلك المعركة، وقفت مجموعة ثالثة من أنصار الدين تراقب ما يحدث وتشارك فيه قدر جهدها عن طريق الانتقاد المستمر للفجوات الكبرىٰ الموجودة في نظريات التطور نفسها سواء كان إلهيًا أو طبيعيًا!

هؤلاء هم الذين يؤمنون بالخلق المباشر من الله للكائنات، حيث خُلق كل كائن متفردًا بذاته، وأن التطور من نوع لآخر لا يثبت بدليل حقيقي. هؤلاء اسمهم في الغرب الخلقويون: Creationist: .

هذه باختصار معركة الغرب الكبرىٰ المتعلقة بتلك النظرية، وبما أننا تبع لهم علميًا في هذا العصر؛ فقد كان لابد من انتقال نفس المعركة إلىٰ أراضي المسلمين، ولم تكن هذه المرة نخبوية ساذجة كما حدث في أيام محمد عبده، بل أصبحت ذات رواج ضخم تأصيلي في الأوساط المتعلمة!

أراد العقلانيون المسلمون محاكاة سابقيهم من عقلانيي الإثنية الغربية؛ في ترويج أن دينهم يقبل نظرية التطور، والقذة بالقذة قاموا طبعًا بتزويج الداروينية بالإسلام قهرًا رغم إلحادها وحرمة الزواج بها، إلا أنهم أنطقوها الشهادتين بعجالة ثم أعلنوا انتصارهم: قد تزوجت الداروينية بالإسلام!

هكذا خرج إلىٰ النور مولودهما المشوه: الداروينية المتأسلمة!

وإن أبيح لأي منتمٍ لديانة أخرىٰ العبث كما يشاء تأويلًا وتحريفًا؛ فإن عقيدة الإسلام ترفض العبث والهذر في مسائل بهذه الخطورة، ولكن منهج عقلانيي المسلمين سمح بهذا للأسف؛ فلم يكن مجرد تبعيتهم لعقلانيي الغرب هو السبب الوحيد لسعيهم في هذا الزواج المرفوض، إنما كانت المشكلة أعمق وتتعلق بفلسفتهم المنهجية التي جعلتهم يصلون لهذه النقطة. ويمكن تبسيط فلسفتهم إن تخيلنا مثلثًا أحد

أطرافه المدببة هو العلم والثاني هو العقلانية والأخير هو الدين (الوحي)؛ فإن عقيدة المسلم تجعل طرف الدين المدبب متواجدًا بالأعلىٰ بينما طرفي العقلانية والعلم هما ارتكاز هذا المثلث، بينما منهج العقلانيين المسلمين من العلماء قلب هذا المثلث؛ فجعل الدين بالأسفل محكومًا علىٰ دقة تفسير آياته أو صحة أحاديثه من طرفي الارتكاز (العلم والعقلانية). وهذا ما لا تقبله عقيدة المسلم أبدًا!

هكذا طمَّت المصيبة! فبدلًا من جعل الوحي هو الحاكم الذي له المرجع النهائي في أي النظريات العلمية حقيقي وأيها كاذب، خاصة عندما تكون أدلة الشرع راسخة متينة وأدلة العلم مائعة مهتزة، وكثير منها فيه أخذ ورد كأدلة الداروينية، انقلب المثلث وأصبح رأسه هو سافله. وأصبح العلم المادي قادرًا علىٰ رد الوحي أو إلزام علماء الدين بتأويله ليوافقه رغمًا عنهم، وأصبحت العقلانية كذلك حكمًا آخر يرد ما يشاء من حاكمية العلم أو يقبل ما يشاء -المهم أن تظل هي والعلم المادي علىٰ توافق في رقابة تعديل تفسير النصوص الدينية الموحىٰ بها!

وأصبح من اليسير إنكار أبواب كاملة من السنة النبوية موجودة في الصحيحين، وأعيد تفسير الآيات بصورة جديدة مستبعدة للسنة تمامًا، متزايدة في التكلُّف بهيئة مزرية، وكل هذا حادث من جانب عقلانيي المسلمين للوصول إلىٰ صيغة توفِّق بين الأضلع الثلاث!

ومع انفصال العقلانية عن العلم في الغرب كان لابد من حدوث مشاكل تفسيرية كبرىٰ عند مناصري الداروينية المتأسلمة، لأن نظريتهم

الغربية الأصلية المسماة (بالتصميم الذكي عن طريق التطور) راحت تواجه مشاكل هائلة مع كثير من العلماء التطوريين الماديين النافذين هناك، وتحول الأمر إلىٰ ما يشبه القمع العلمي لمعتنقيها فيما يمكن اعتباره كنسية حداثية بديلة للقروسطية ترتدي المعطف الأبيض!

وبعد ذلك الإجمال السريع للقضية نبدأ بإلقاء الضوء علىٰ ما يهمنا نحن كمسلمين من نقاط خطيرة.

ولا أخطر من المنهج المعيوب الذي أدىٰ للأسلمة، أي منهج المثلث المقلوب. وذاك ما نبدأ به. و لابد إن أردت معرفة خطورة هذا المنهج من إجابة السؤال الآتي أولًا: ماذا سيحدث إن ألغيت حجية القرآن والسنة علىٰ العلم الحديث؟

هذا بالضبط ما فعله العقلانيون. آمنوا أن العلم (غربي إلحادي المصدر. تذكر هذا) لا يواجه إلا بمثيله فقط فقط وأن هذه هي العقلانية الكاملة!

بالتالي صارت الإيات القرآنية لا حجية لها عندهم علىٰ الإطلاق، مهما كانت تؤكد حقيقة ثابتة، طالما لا ترجحها كثير من النظريات العلمية الحديثة؛ فأصبحوا عبيدًا للعلم البشري وتفسيراته سواء العقلانية منها: التطوير الذكي، أو غير العقلانية: التطور العشوائي الإلحادي!

فهل هناك فارق حقيقي ضخم في الناتج بين العلماء المسلمين ممن يتبنون منهج تطويع الوحي ليوافق العلم المادي وبين العلماء

الملحدين الذين لا يعترفون بالإسلام أصلًا؟

لقد أنزل زاعمو العقلانية المسلمون كلام الله إلىٰ المرتبة الثانية بعد كلام البشر وعلومهم، وأصبح ما يبغونه هو بضع تأويلات واهية لآيات الله كي تحقق توافقهم المتوهم مع العلوم المادية، ثم العجب أنهم بعد ذلك يحتفلون بانتصار العلم العقلاني المدعوم بالدين علىٰ العلم غير العقلاني الإلحادي![٤].

فأي انتصار حقيقي هنا وهذا الزاعم لا ينتهج منهجًا يرفع حجية كلام الله علىٰ كلام البشر وعلومهم؟

أي انتصار هذا عندما يتفشىٰ الإيمان بحاكمية العلم الطبيعي وهيمنة العقلانية المادية كمركز لتفسير الكون؟ أي انتصار عندما نتحول إلىٰ ماديين لا يؤمنون بغير العلم المادي الغربي سلاحًا لمواجهة الملحدين؟!

وما الذي يُرجىٰ من هذا المنهج إن استخدمه المسلمون؟!

ألا يعتبر غاية هدفهم -حتىٰ بعد تأويل الآيات وإنكار السنة- هو تحويل الملحد إلىٰ ربوبي، قد يؤمن بوجود إله فقط لا أكثر، ودون ديانة محددة؟

وإن تحول إلىٰ الإسلام -ما هي العقيدة التي سأزرعها فيه وقد جعلت إيمانه عرضة للاهتزاز تحت وطأة أي تفسير مادي لمكتشف علمي حديث؟

ومنذ متىٰ والإيمان عند المسلمين يقف عند تصديق وجود الخالق فقط؟ هل إذا آمن أحدهم بالخالق ونفىٰ صحة آية واحدة من القرآن الكريم أو كذَّب السنة النبوية وردها يصح إسلامه؟

إن الإلحاد يواجَه بمنهاج القرآن في الأمور الواضحات البينات؛ فإذا وافقت أدلة المنهج وآياته قطعية الدلالة الأبحاث والمنتجات العلمية البشرية فأهلًا؛ لكنها تظل في المكانة الثانية في أدلة الدعوة ولا تنفي أصل المنهج، الحجية الأصلية في منهج وأدلة القرآن المهيمن والطرف الأسمىٰ الأعلىٰ في المثلث. وقد كان رسول الله يستخدم القرآن لمواجهة من يكذبونه فلا يمنعه هذا من تلاوة آياته واستخدام حجيته عليهم فوق كل شيء.

والمنهاج القرآني شامل لكليات المحاجَّات العقلية المنضبطة بحدود الشريعة، وكثير من هذه يقع في نطاق علم الكلام ويخرج عن موضوعنا الحالي فلن أسترسل فيه، وقد قال الإمام السيوطي في الإتقان: قال العلماء قد اشتمل القرآن العظيم علىٰ جميع أنواع البراهين والأدلة. وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يُبنىٰ من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده علىٰ عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين «**وما أحسن تعليله الذي تلىٰ ذلك بقوله**» إن المائل إلىٰ طريق المحاجَّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام فإن من استطاع أن يُفهِم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلىٰ الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون. ولم يكن

مُلغزًا؛ فأخرج تعالىٰ مخاطبته في محاجَّة خلقه في أجلىٰ صورةٍ ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أثنائها ما يربىٰ علىٰ ما أدركه فهم الخطباء. **هذا وللإمام فصل كامل عن جدل القرآن في كتابه هذا -أي الإتقان- فيه ذكر لصور الجدل المنطقي الدقيق الذي استخدمه رب العالمين في دحض محاجَّات الكافرين.**

والمنهج القرآني في معاملة مكذبيه إن انتهجناه في قضية الداروينية تحديدًا؛ لن نجد صعوبة به في تفنيد ادعاء أصحابها الصحة مطلقًا! وسأضع مثالًا لإثبات أن هذا المنهج القرآني ليس بالعاجز عن مواجهة التطوريين كما يتصور البعض.

ليكن السؤال الأساسي الذي نبدأ منه هو: هل التطور الناقل من نوع إلىٰ نوع macroevolution **قد تم إثباته بالتجارب المعملية بعيدًا عن النظريات؟!**

إن الإجابة معروفة بلا جدال: أبدًا! لم يحدث علىٰ الإطلاق.

ربما يشاغب البعض بتزويج الأحيائيين بعض الفئران أو الكلاب أو الطيور مختلفة الأشكال والأنواع لإنتاج سلالات جديدة: لكن هذا البعض يُسلِّم بأنها مع ذلك بقيت في إطار نفس النوع؛ فالفئران ظلت فئرانًا والكلاب ظلت كلابًا والعصافير ظلت كما هي -لكنهم قدموا تفسيرًا لهذه التجارب والمشاهدات الطبيعية المختلفة بأنه يمكن بمرور ملايين السنوات وهذا التزاوج المستمر إنتاج طفرات مختلفة تُخرج أنواعًا جديدة.

والحقيقة أن هذا يثبت عجزهم ولا يعطيهم حجة؛ فقد قاموا بكل تلك التجارب لكنهم لم ينقلوا نوعًا إلىٰ آخر، برغم تعمدهم محاولة ذلك، وعدم طبيعية هذه التصرفات التي يقومون بها؛ فأنواع الحيوانات التي قاموا بتهجينها وتزويجها من بعضها البعض ليس من الطبيعي أن تفعل ذلك أصلًا. فهم يخالفون الطبيعة بقصد إحداث طفرات ما أمكن، وهو عكس نظريتهم التي تفترض حدوث ذلك بصورة طبيعية، وقد قالوا في النهاية بما قالوه في البداية من كلام منمق يثبت عجزهم عن إثبات التطور الناقل للنوع بالتجربة بتحميل مسئولية ذلك علىٰ عامل الزمن: نحن لن نتمكن من إثباتها عمليًا لأنها تحتاج إلىٰ ملايين السنين!

مستحيل أن تصمم تجربة تثبت بيقين، وبدليل حسي لا يقبل التأويل القريب، أن التطور من جنس لجنس قد حدث فعلًا! إن عامل الزمن الطويل، وهو أول المتغيرات المستقلة الرئيسية: يستحيل توفيره. وعامل الظروف الطبيعية العشوائية بلا أي تدخل متعمَّد لإحداث الطفرات: يستحيل توفيره. بالتالي فهذه تجربة مستحيلة!

إذن المنهج التجريبي نفسه أول الهازئين بمن يرفع الداروينية إلىٰ درجة الحقائق التي تهزم نص الوحي فتجبره علىٰ إعلان الانكسار أو التأويل!

ومنهاج القرآن يطلب المنهج التجريبي نفسه في إثبات النظريات المخالفة له؛ فالله ﷻ كان يتحدىٰ أي نظرية مخالفة له بطلب الإثبات العملي، وقد أجرىٰ علىٰ لسان أنبيائه دائمًا رفض النظريات الغيبية

المخالفة لما يخبر به النبي مقابل التحدي بالعلم التجريبي. وهو إلزام للمخالف بلوازم عقيدته المُخترعة.

فها هو النمرود يتم تحدي نظريته الخاصة الغيبية بألوهيته الشخصية بتحدٍ عملي تجريبي هو ضرورة إثبات ذلك بإظهار الشمس من المغرب بدلًا من المشرق! تجربة عملية بسيطة ومباشرة لكشف حقيقة أي نظرية باطلة مهما بدت فخمة أوكان حجم انتشارها. ولابد من بساطتها ووضوحها ومباشرتها. والعجيب أن النمرود كان أكثر عقلًا من أن يقول أنه قادر علىٰ فعل هذا لكن عبر مليون سنة من تحريك الشمس ببطء لذا فلا يلزمه أن إبراهيم عليه السلام لن يعيش طوال هذا! إن هذا المنطق لو استخدمه لكان نفس منطق التطوريين: ادعاء أن نظريتهم صحيحة تمامًا لكن إثباتها مستحيل بالتجربة المعملية لأنها تحتاج إلىٰ ملايين السنين!

كذلك كان التحدي الإلهي القرآني لنظريات الملحدين بعدم وجود إله هو أن يقوموا بتجربة عملية يخلقون بها بعوضة من لا شيء. من فراغ. تحويل العدم إلىٰ كائن حي بسيط. تجربة مباشرة وبسيطة مع ذلك ومع كل هذا التقدم الهائل في العصر الحالي والذي جعل البعض ينظر للقرآن باشمئزاز علىٰ أنه كتاب عتيق، إلا أن التحدي التجريبي القرآني لازال يدك نظرياتهم الجوفاء فلا يستطيعون الرد عليه بتجربة علمية تجريبية واحدة يقف فيها عالم أو ألف مثله أمام الناس يخلقون لهم من الفراغ كائنًا حيًا كالبعوضة.

وقد يشاغب البعض متحايلًا كالحواة عن طريق أخذ جينات وتبويضها ثم إنتاج البعوضة وهذا يزيد السخرية منهم أكثر: الله يقول لكم اصنعوا من العدم وأنتم تأخذون خلية من بعوضة أخرىٰ وتنتجونها ثم تعتقدون في علومكم دحض الألوهية؟! أين الرد التجريبي المثبت لنظريات الخلق من عدم أو من لا شيء وأنتم تحتاجون لبعوضة مخلوقة فعلًا كي تقوموا بإنشاء واحدة أخرىٰ؟!

مرة أخرىٰ كان يمكن للكافرين استخدام نفس منطق الرد العلمي فقد كان بإمكانهم استيلاد ذبابة من يرقات ذباب آخر والادعاء أنهم خلقوا ذبابًا جديدًا، لكنهم كانوا أكثر عقلانية من هؤلاء!

النظريات كي تتحول إلىٰ حقائق لابد من إثباتها بالتجارب العلمية المتواترة المباشرة والمتكررة. ومادام التطوريون لا يمكنهم تسجيل تحول خلية بكتيرية إلىٰ كائن آخر متطور بصورة طبيعية تمامًا فلا يمكنهم إثبات نظرياتهم. إن هي إلا مشاهدات ونظريات تقابلها مشاهدات ونظريات. والوحي فقط هو الحكم علىٰ صحة أيهما. والوحي في المسألة الداروينية لخلق الإنسان بالذات يؤكد علىٰ عدم تطوره من أسلاف أخرىٰ. فكل من يحاول إثبات أن الإنسان قد تطور بلا إله نطلب منه كما علمنا الله في القرآن: تجربة عملية بسيطة ومباشرة تظهر لنا أن الخلايا تنتج من فراغ؛ فإن عجز فالإلحاد أساسه مهدوم ويسقط قيد بلا إله. ثم بتطور عشوائي أو منظم تتحول هذه الخلية لبشر؛ فإن عجز فالتطور أساسه مهدوم، أو علىٰ الأقل سقط الجانب الذي نفاه الوحي

منها: خلق الإنسان بالتطور، وبالتالي يسقط قول القائل بأن هذا أمر مثبت وحق لا ريب فيه.

وماداموا لم يستطيعوا ولن يستطيعوا فلا مجال لإثبات نظرياتهم هذه ولا جدوىٰ من محاولة أسلمتها رغمًا عن أنف المسلمين! ولا جدوىٰ من محاولة إثبات نظريات غيبية قد تتبدل بين يوم وليلة. يكفي هذا الهوس بأسلمة النظريات العلمية الغربية لإثبات الإعجاز العلمي في القرآن؛ فحجم المشاكل التي تسبب ويتسبب فيها فوق الخيال، خاصة في الأمور التي لم يثبتها العلم بالتجارب والمشاهدات المباشرة المتواترة، وليس لها داع كذلك؛ فمسألة الإيمان بالله أو الإلحاد لا علاقة لها مباشرة وأصلية بالداروينية أو العلوم الحديثة، من يلحد فإنه علىٰ الأغلب يفعلها لأمور لا علاقة لها بالداروينية أو العلم أصلًا! حتىٰ لو قام المسلم الذي يقنعه بإعطائه ألف مليون دليل علمي علىٰ أن الكائنات كلها ظهرت فجأة وأعلن الغرب -قبلته التي هو موليها- صحة قول القرآن النهائية فسيقول الملحد أن الكائنات الفضائية هي من أوجدت الحياة: كما فعل العالم الملحد الشهير دوكنز قبلًا! فأصل المشكلة التي جعلته ملحدًا في الغالب ليست متعلقة إلا ظاهرًا بالعلم الحديث. وغالبًا ما تكون أسباب شخصية أو عقلية مختلفة من ملحد لآخر وهذه لها مجال آخر ومحاجَّات أخرىٰ كما ذكرت في المقدمة.

إذن فمنهج القرآن لا مشكلة فيه ولم يستطع العلم الحالي أبدًا

إثبات خطأ آية واحدة مستدل بها؛ فلماذا يتردد البعض في استخدامه كحاكم للمثلث، معتقدًا أن الملحد لا يواجه أبدًا إلا بالمنتوج العلمي المادي وحده؟!

مخاطرة كبيرة تلك التي يعرض الداعية زاعم العقلانية هذا عند استخدامه هذا المنهج: مواجهة أدلة العلم بأدلة العلم فقط دون تقييد بأدلة الوحي التي فرض المنهج القرآني استخدامها متعاضدة وحاكمة؛ فأهل التخصص يمكنهم أن يتلاعبوا به ويرجحوا نظرية معينة فوق نظرية أخرىٰ استنادًا إلىٰ عشرات الأبحاث العلمية التي قاموا بها؛ فتتحول العملية إلىٰ صراع ديمقراطي علىٰ النظرية البشرية ذات الأغلبية في العالم!

ووقتها ستفوز الداروينية بالقاضية! وسيصبح رأيه هو الشاذ الذي لا يدعمه عموم (أهل العلم)! سيكون هو من وضع نفسه في هذه الورطة. لأنه حارب ماديتهم بمادية مواجهة وليس بقرآن رب العالمين وسنة نبيه. ويحاربها علىٰ أساس التسليم بأن ما يقوله عموم أهل العلم الطبيعي ولو بأدلة واهية -واجب التسليم به وطرح غيره!

ناهيك أن أصحاب نظريات التطور بالتصميم الذكي ليسوا بأغلبية في أهل العلم أصلًا؛ فبرغم كل شيء بقيت الداروينية التطورية ذات التفسيرات الطبيعية المادية علىٰ القمة نتاجًا لهيمنة الكنيسة العلمية البيضاء علىٰ العلوم.

إن الكثير من العلماء، خاصة في القرن التاسع عشر، وحتىٰ الآن

بصورة أقل، كانوا يتحركون سريعًا في الظلام بمصباح واهن، كلما أضاء لهم مترين توهموا قرب الإحاطة ودنو الوصول إلىٰ ختم الطريق. ثم إذا استمروا يهرولون الفرسخ تلو الفرسخ بان لهم لا نهائيته واستحالة الإحاطة. وما تاريخ العلماء الطبيعيين الغربي إلا محاكاة تلك الصورة: ها قد وصلنا إلىٰ الحسم أو أوشكنا. ثم بعد سنوات: إيه! لم تكن تلك النهاية؛ لكننا قد وصلنا إلىٰ الحسم أو أوشكنا. ثم بعد بضع سنوات أخرىٰ: يالحماقة السابقين! ظنوا أنهم اقتربوا من الوصول. لكننا الآن اقتربنا من الوصول . . وهكذا!

في القرن الأخير تباطأ هذا الهوس لكنه لم ينقطع تمامًا!

أما الكنيسة البيضاء فهي مانع كشف هذه الحقيقة الواضحة، ولنا عند الكنيسة البيضاء وقفة لنشرح ماهيتها:

يمكن أن نعتبر أنه بنهاية عصر هيمنة الكنيسة الكاثوليكية السوداء -زي الرهبان- علىٰ الغرب، وبداية عصر الاستنارة العلمانية المشهور، كان قد تعاظم الانتقام من المؤسسة الدينية بتجاهلها وتسفيه آرائها وجهودها العلمية السابقة علىٰ عصر العلمانية؛ وكانت العلة الأكبر لذاك الانتقام هو تحكمها بيد حديدية في العلوم وتوجهات العلماء المنتسبين إليها وقيامها بتصعيد من يوافقها وحرق من لا يوافقها، وإن كان في هذه السردية العلمانية الشهيرة مبالغات!

ومع مرور الزمن في عهد العلمانية، بدأت كنيسة أخرىٰ في التشكل: إنها كنيسة معاطف العلماء، الكنيسة البيضاء؛ وفيها بدأت

الطبيعة تحل في عرش الإله، والبابوية تترسم عن طريق جائزة نوبل، بينما الكهنة صاروا هم العلماء المتحكمين في المؤسسات، وأصبحت الكتب المقدسة هي النظريات المادية وأشهرها الداروينية التطورية.

وبرغم أن هذا يبدو عظيمًا وانتصارًا هائلًا في الظاهر وبالمقاييس التي نشأنا عليها، إلا أنه مع الوقت بدأت العيوب تظهر، وتفتضح وراثة الكنيسة البيضاء لعيوب سابقتها؛ فأصبح الكهنة والبابوات يضطهدون كل من يخالف كتبهم المقدسة، واستخدم في سبيل ذلك الحرمان من الكهانة الحديثة (الدرجات العلمية) أو النقل أو حتىٰ الفصل التعسفي. وصار هذا هو الجو العام وإن كنا لا ننفي وجود حالات شاذة فيه كما كان الأمر في عصر الكنيسة الأولىٰ!

لا مجال لمخالفة عموم نظريات الكهنة، لا مجال للتفسيرات غير المادية، الغموض والضباب المادي أفضل ألف مرة من الوضوح الإيماني، هكذا لم يعد هناك مجال في علوم الأحياء لاحترام نظريات الخلق؛ مهما تجلت لا معقولية التفسيرات التطورية الأخرىٰ.

استخدم ضد أصحاب تلك النظريات نفس جوهر أشكال الاضطهاد القديمة لكن بأساليب تناسب العصر الحديث؛ فأصبح الحرمان من التعليم أو الحرمان من دخول الكنائس الجديدة أو الحرق عن طريق تشويه السمعة العلمية هو السبيل لوقف الهرطقة إن تمادىٰ صاحبها في غيِّه!

هكذا يتعامل العلماء الدراونة من أنصار التطور المادي بتعالٍ بالغ

الاستفزاز مع أي عالم بيولوجي خلقوي حتىٰ لو كان ممن يؤمنون بالخلق عن طريق التطور نفسه: التطور الإلهي؛ فكما قلنا قبلًا هم ليسوا بأغلبية، لذلك نجد يوجيني سكوت مثلًا، وهي المدير التنفيذي للمركز الوطني لتدريس العلوم في أمريكا NCSE، تصف علماء البيولوجيا أنصار التطور بالتوجيه الإلهي أن أطروحتهم جدل ناجم عن الجهل[٥]! لذا تقود حربًا ضد كل هؤلاء وتمنعهم من مؤسساتها العلمية ما وسعها. بينما جلين برانش، نائب المدير في نفس المؤسسة، يشاركها نفس التوصيف والاحتقار لهؤلاء الجهلة وله كتب معها لرفض تلك البدعة!

وبالطبع يصف دوكنز الدارويني الملحد الأشهر كافة منكري التطور من العلماء بالجملة الآتية الجامعة في التطاول والشهيرة جدًا:

من الآمن تمامًا أنك إن قابلت منكرًا للتطور أن تسميه شخصًا جاهلًا، غبيًا أو مجنونًا -ربما شريرًا كذلك لكني لا أفضل هذا[٦]!

ويزيد الأمر شقاءً بوصف نظريتهم عن التطور الإلهي الموجه بأنه: إله الفجوات؛ وهي تعني ببساطة أن العلم الحديث مليء بالفجوات التي يعتمد هؤلاء علىٰ سدها بإيجاد الله! هكذا تم تصوير العلم الحديث ثوبًا كاملًا به بعض الخروق البسيطة فقط، ينفذ منها الجهلة الدوجمائيون. ذات الأسلوب القديم في قمع الآراء المعارضة للكنيسة بأن بعض التفسيرات التوراتية التي لا تستقيم عقلًا ينفذ منها بعض الجهلة لإثبات عدم وجود الإله! فقط انقلب الوضع وأصبحت الكنيسة البيضاء في موضع السوداء. لا احترام لأي نظرية مخالفة مهما كانت الحيثية العلمية

لقائلها -فهو مجرد جاهل بل شرير أحيانًا!

لذا لم يكن مستغربًا أن تقوم لجنة الثقافة والعلوم والتعليم في الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٧ بوضع مذكرة تناقش خطورة تسلل مفاهيم أي نظرية تعارض التطور العشوائي الدارويني -حتىٰ لو كانت التطور الموجه- إلىٰ المناهج الأوروبية قائلة: الخلقوية في أي من أشكالها، حتىٰ لو كانت التصميم الذكي، غير معتمدة علىٰ حقائق ولا منطق علمي ومحتواها غير لائق بصورة مثيرة للشفقة لأي منهج علمي . . إنها ضد العلم antiscience ومعتمدة علىٰ الخداع العلمي(٧)**!**

ومن نفس المنطلق تنصح مؤسسة التعليم والمهارات -التي كانت مسؤولة عن كافة مناهج التعليم العام في إنجلترا- بأن: لا يتم تعليم الخلقوية ولا التطور بالتصميم الذكي في أي مناهج علمية في المدارس . . فمناهج التعليم الوطنية للعلوم توضح بجلاء أن علىٰ التلاميذ أن يتعلموا كون السجل الحفري هو دليل علىٰ التطور(٨). **وهكذا تُصدر الحكومة الإنجليزية في عام ٢٠٠٧ رفضًا حاسمًا لتعليم نظريات الخلق والتصميم الذكي وتقوم بتوصيف هذه النظرية بأقذع الألفاظ:** إن التصميم الذكي أكاذيب بالكامل خارج العلوم **(بالإضافة إلىٰ أنه -ولاحظ العبارة القادمة)** ليست مقبولة من المجتمع العلمي علىٰ الإطلاق(٩).

هكذا إذن! هل وضح شكل الكنيسة البيضاء الجديدة؟ لم يتضح بعد؟

تخيل نفسك تقوم ببحث في مؤسسات تقمع تلك النظرية التي تريد إثباتها ولا تسمح بتعليمها ولا احترامها أصلًا؛ في دولة تأخذ ذلك التوجه؛ في مجتمع علمي عالمي يعاديه. ما مصيرك وهم المسؤولون عن منحك الإجازات العلمية (الكهنوتية) التي تسمح لك بولوج الإكليروس الحديث؟ كيف سيقبلون أطروحتك وهم يصفون أصولها مبدئيًا بالخداع والكذب ويصمون صاحبها بالجهل حتىٰ لو كان ممن يحملون أعلىٰ الدرجات العلمية؟

وكمثال علىٰ هذا التصيُّد المخيف يمكن تتبع ردود الأفعال العلمية علىٰ كتاب العالم المعروف مايكل بيهي: صندوق داروين الأسود، والذي يتحدث فيه عن التصميم الذكي. يمكنك رؤية كيف تمت مواجهته بكافة الصور والأشكال، وكيف تمت محاربته في كل مكان!

ومنها رد الفعل الداروينى علىٰ مقال Celebrate the Unknowns، للكاتب العلمي الإنجليزي Philip Ball، بمجلة الطبيعة Nature في عام ٢٠١٣ والذي تحدث فيه عن أن الجينوم مجهول حتىٰ الآن وليس معروفًا لهذه الدرجة المُتصوَّرة: وهو كلام لازمه خفض مقدرتنا علىٰ تحكيمه في ترجيح شيء بهذا الحسم: مثل نظريات التطور. حينها يتم مواجهته من العالم الدارويني المتعصب Larry Moran والأستاذ بجامعة تورنتو بمقال عنوانه: مجلة الطبيعة تحتفل بالجهل: Nature Celebrates Ignorance :DNA!

الأستاذ الدكتور لاري كان قد نظَّم محاضرة قبل هذا المقال بعام

واحد يدعم فيها التطور ضد خصومه عنوانها : العلم في مواجهة الأغبياء Science vs Idiots! وهو نبيه يعلم لوازم كلام فيلب بول لذا كان هجومه شرسًا!

لا تسامُح! كهانة كاملة، وإكليروس كامل. كنيسة كبرىٰ تتحكم وتوجِّه وتمنع وتضطهد! الطبيعة في موضع الإله حتىٰ لو كانت نظرياتها العلمية بها فجوات منطقية واسعة تجب اليقين. المهم أن الإيمان بإله الطبيعة هو المسيطر. الدوجمائية والتعصب والاضطهاد في أوج حالاتهم ثم يُرمىٰ الآخر بتلك الاتهامات! يصر زاعمو العقلانية الدروانة علىٰ تحكيم تلك المؤسسات العلمية في مسارات تأويل الوحي القرآني وتصحيح أو رد الحديث النبوي!

فعلام كل ذاك الهوس بتحكيم نتاج كهنتها علىٰ الوحي القرآني والسنة المطهرة؟

أما من اتخذ الوحي مهيمنًا فلن يجد أي مشكلة كما قد يتخيل البعض.

إن أخذنا بالتقسيم الاعتباري للتطور إلىٰ نوعين، التطوُّر المُصغَّر والمُكبَّر، وهما بحسب تعريف Mark Ridley:

التطور المكبَّر يعني التطور علىٰ مستوىٰ كبير، وهي يُدرس بصورة رئيسية في السجل الحفري. ويتم تمييزه عن التطوُّر المُصغَّر بأن الثاني هو دراسة التطور في أزمنة قصيرة، كعمر الإنسان أو أقل. **فسنجد أن**

تطور النوع الواحد microevolution لا يناقض دليلًا من القرآن ولا السنة: كتطور مناعة الحشرات والبكتيريا؛ بل قد يدعمه حديث طول آدم وتناقصه. بينما التطور الناقل من نوع إلىٰ آخر macroevolution (البكتيريا إلىٰ ذبابة مثلًا) فلا دليل عليه يدعمه أو يرفضه تمامًا، والتفسير القرآني والنبوي يدعم الخلق المباشر لا التطور في هذه النقطة بالنسبة لكافة المخلوقات الأخرىٰ، وعامة يمكن التسامح مع من يقول به لغياب قطعية الدلالة.

لكن المشكلة الشرعية الكبرىٰ حاضرة في مسألة خلق الإنسان بالذات، وهو مدار المعركة كلها بالفعل؛ فتعاضد أدلة القرآن والسنة المبينة له ينفيه يقينًا، ولا مشكلة عقلانية حقيقية مع هذا النفي بالنسبة للمؤمن بالله ولا مشكلة منهجية علمية حقيقية كذلك. وقد تحدثنا بذلك عند ذكرنا للمنهج القرآني في التحدي بالعلم التجريبي المنظور.

هكذا يهدد منهج هيمنة العقلانية والعلم علىٰ الوحي معتنقيه: بأنه لو خرج علماء الغرب غدًا لطرح أو تضعيف الأدلة العلمية التي قدموها في التطور المتأسلم سيتحولون إلىٰ عرايا تمامًا أمام الملحدين! فلا قرآن -بعدما تم تأويله بتفسيرات جديدة تمامًا ووضعه في مرتبة متأخرة من حيث الدلالة- يؤمن به الملحد ولا أبحاث علمية قوية تؤيد من يواجهه!

وإننا قبل الانتهاء من مناقشة هذا المنهج والدخول في محاولة تفنيد ادعاءات التطوريين، لابد أن نتعرف علىٰ الداعية أو العالم الذي سعىٰ لأسلمة النظرية.

وللتعرف علىٰ هذا الشيخ لابد أن نلاحظ أولًا من هم أول من قاموا بالبحث الجاد في كيفية أسلمة الداروينية؟

هناك الكثير من الأسماء تبرز مثل د. مصطفىٰ محمود وخالد محمد خالد وغيرهما، لكن يمكن اعتبار ضربة الدرعمي الدكتور عبد الصبور شاهين -الأكثر شهرة من المشايخ العلماء الشرعيين- هي الأشد تأثيرًا؛ فقد ذهب إلىٰ مسافة بعيدة بتأويلات خيالية للقرآن والسنة لإثبات وجهة نظره، والتي يعترف في لقاء مسجل مشهور أن ما حفزه عليها كان عدم اعتقاده أن اللغة يمكن أن تبدأ (فجأة) وضرورة وجود ملايين السنوات لتطورها. وهي النظرية التي لم تدعمها غير الداروينية التي تعطيه الفرصة ليثبت اعتقاده؛ ففيها تطورت الأحبال الصوتية عند سلف الإنسان حتىٰ وصلت إلىٰ مرحلة صوتية محددة منها بدأت اللغة علىٰ استحياء وعبر ملايين السنين كان تطورها، وبرغم أن الآية القرآنية الواضحة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ قوية كدليل لنفي هذا الاعتقاد وحاسمة لمسألة تعليم لغة بأركان رئيسية (أسماء كافة الكائنات) مما يستلزمه ذلك من مقاطع صوتية ومورفيمات وفونيمات، إلا أنه تأوَّل الآية كما فعل بغيرها، ورد كافة أقوال المفسرين القدماء التي لا تدعمه، واعتبرها مجرد تفسيرات تراثية مبنية علىٰ إسرائيليات. هكذا كان تحكيمه للمنهج المتأزم هو أول طريق الضياع: لابد أن يوافق كلًا من العقلانية والعلم الغربي علىٰ الوحي حتىٰ نقبله، وإلا توجب علينا تأويله ورد كافة ما قيل في الأمر سابقًا.

وكان للرجل جهادٌ كبيرٌ ضد المعادين للإسلام عبر تاريخه، وهو

نفسه كان يعتبر هذه المحاولة توفيقًا منه للرد علىٰ شبهات الملحدين المصرين علىٰ أن العلم التطوري لا يتفق مع الإسلام أصلًا (وقد صدقوا في هذا وهم الواهمون) فساعده منهجه علىٰ كتابة واحد من أشهر الكتب التي نظَّرت لهذا الأمر من جهة الشرع، وسنناقش هذا الكتاب بالتفصيل في نهاية الكتاب ونوضِّح أنه هو نفسه خلط حتىٰ لم يعد من المتيسر فهم ما يريد.

ثم جاء بعده د. عمرو شريف وهو دارويني متعصِّب لا يكاد يمرر كتابًا له إلا ويؤكد فيه أن الداروينية من الإسلام. واعتمد علىٰ الناحية الشرعية التي أصَّلها د. عبد الصبور شاهين ثم أدخل معها جانب الإقناع الفلسفي كرجل من تلاميذ مدرسة د. عبد الوهاب المسيري، وأضاف إلىٰ ذلك جانب الإقناع العلمي كطبيب جراحة؛ فأصبحت كتبه عن هذا الأمر من أكثر كتب أنصار الداروينية المتأسلمة تطورًا واكتمالًا حتىٰ هذه اللحظة؛ خاصةً مع اجتهاده العظيم المثير للتعجب في نشر كلامه هذا. برغم ما فيها من مشاكل، أصلها المنهج الفكري والمشاكل العلمية نفسها أكثر من علم د. عمرو شريف نفسه؛ فقد استخدم أسلوبه الجذاب لتغطية فجوات النظرية التي يقدمها، والتي نجح في تغريبها بجعلها مرتبطة بنظرية التصميم الذكي التطورية الأمريكية. هكذا اكتملت منظومة النجاح في مواجهة الملحدين من وجهة نظره: منظومة فلسفية عقلانية علمية مرتبطة بالوحي معترف بها غربيًا ويدعمها الأسلوب الجذاب. فأصبحت تلك المنظومة تستخدم لمواجهة الملحدين. وفي الحقيقة أن

المواجهة لن تكون صعبة وقتها فالذي حدث بكل بساطة أنك أخبرت الملحد بأن الله فقط (قاد) التطور من الخلية الأولىٰ للإنسان! أنت لم تغير الكثير ولم تبذل جهدًا في هدم النظرية وتبيان تعارضها الواضح مع الوحي، بل قمت بتأويل الوحي بكافة الصور غير المعقولة مع رد الأحاديث النبوية التي تهدم هذه النظرية -حتىٰ لو كان مصدر الحديث من البخاري ومسلم- فنتج هذا المنهج الإقناعي الذي تعتبره كاملًا!

المشكلة أن من يستخدم تلك التوليفة يتوهم أو يوهم في كثير من الأحيان أن الغرب يتقبل بسرور (التصميم الذكي) أصلًا أو يعترف به، وهو الأمر غير الحقيقي، والذي تحدثنا عنه سابقًا؛ فالكنيسة البيضاء هناك لا تعترف بهذا الأمر ولا تظن قائليه إلا مجموعة من الجهلة لا العلماء! فما فائدة بذل المجهود الرهيب لتأويل الوحي ورد السنة لإثبات نظرية التطور الموجه والتي يعتبرها الغرب جهلًا وسخافة بلا حدود وينظر لها ولمعتنقيها باحتقار؟! إن رمتَ موافقة الغرب والعلم فأنت حتمًا غير موفق في هذا فعلام الهرولة نحو الشبهات؟

نعم النية سليمة، وهي الرد علىٰ الإلحاد، لكن ألا تقول الحكمة الشهيرة: الطريق إلىٰ الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة!

فوق هذا: هل الداروينية التطورية نظرية متكاملة حاسمة فعلًا؟ هل الأمر يستحق هذا التصفيق المستمر لدارون الذي لم ينفك د.عمرو شريف ونظراؤه أن يقوموا به كلما ذكر اسم الرجل باعتبار أنه قد فعل ما لم يصنعه المسلمون قبلًا علىٰ الإطلاق عندما سار في الأرض ليرىٰ

كيف بدأ الخلق فأخرج نظريته العجائبية؟

سنحاول عرض وتفنيد بعض أطروحات معتنقي الداروينية المتأسلمة في الباب القادم إن شاء الله.

ولابد من التنبيه علىٰ أشياء قبل الدخول في هذا الباب:

- أولًا: أن نظرية الداروينية ظلت عبر قرن ونصف تُدعَّم من ملايين العلماء البيولوجيين بل مختلف أنواع العلوم؛ فلك أن تتخيل حجم الأطروحات والنظريات التي قيلت لرد وكسر أي مخالف لها، وكما سبق وذكرنا فالحرب قديمة بين الكنيسة البيضاء والخلقويين، وهي قادرة علىٰ قمعهم بل تفعل بلا تردد. فلا حياد علمي في الغرب كما يحاول البعض الإيهام. ود.عمرو نفسه يطلب من قارئيه مشاهدة فيلم (مطرود: لا ذكاء مسموح)(١٠) الأمريكي الذي يُظهِر تعرض أي عالم يؤمن بالتصميم الذكي إلىٰ الطرد المهذب أو الخشن من مؤسسته العلمية لكنه متواري الأسباب. حتىٰ إن أحد الدروانة يُطرَد من موقعه العلمي لا لشيء سوىٰ لأنه كتب في إحدىٰ المجلات العلمية رأيًا متسامحًا مع معتنقي نظرية التطور الإلهي الذكي!

إذن فحجم النظريات والأفكار التطورية أكبر بكثير من أن يتسع المجال لذكرها والرد عليها هنا كما نوهنا في المقدمة، إنما قد قمنا باختيار بعض أشد الحجج شهرة وباستعراض سريع لها والرد عليها بالخطوط العريضة لما يمكن تفصيله في المراجع والمباحث المتخصصة.

- ثانيًا: أن أغلب الفصول قد اعتمدت في الرد بداخلها علىٰ كتابات د.عمرو شريف بالذات عن الأمر؛ فكما قلت سابقًا فأنا أعتبر كتاباته الأكثر اكتمالًا بالنسبة لأنصار تلك النظرية، لهذا فالرد عليه وتبيان مشاكل نظريته ومنهجة المأزوم هو الأولوية حاليًا.

بالتالي فالباب الثاني يعتمد أغلبه في عرض وتفنيد حججه التي عرضها في كتابه (كيف بدأ الخلق) علىٰ حدوث التطور، وأغلبها حجج مُطلقة لكل التطوريين عامةً، وللتطوريين عبر التصميم الذكي خاصة.

- ثالثًا: أن كثيرًا من المسلمين قد لا يتفهم السبب الذي يتم فرد هذه الصفحات للرد علىٰ هذه النظرية، ولا سبب تخصيص كتاب لها، حتىٰ لو كان بحثًا صغير الحجم كهذا، ولهؤلاء أقول أن الأمر حقًا جلل؛ فقد بدأت النظرية هذه -ولغياب كتب الردود عليها- تتسلل إلىٰ صفوف الإسلاميين أنفسهم! لا مجرد العلميين منهم أو حتىٰ المسلمين العاديين -بل الإسلاميين عامة!

بشكل أدق: المطالبون بالشريعة الإسلامية!

فأصبح من المعتاد حاليًا أن تجد شخصًا من المطالبين بالشريعة ولحيته تصل إلىٰ منتصف صدره وقد قضىٰ حياته في الدعوة لله -ومع هذا يطالبك بقبول نظرية الداروينية المتأسلمة أو علىٰ الأقل التسامح مع معتنقيها وعدم إنكار جهدهم لخدمة الإسلام، أو قبولهم بيننا بحجة أنهم متأولون!

أحتىٰ إن ردوا السنن واستهزأوا بالسلف؟!

بل أشد من هذا أن أصبح هناك إرهاب فكري لمن يحاول كشف أن النظرية كافرة حقًا وما إشهارها للإسلام إلا نفاق وخداع أدىٰ إلىٰ وصم من يكشفه بأنه لا يقبل تأويل العلماء!

والحقيقة أننا لو سرنا في هذا الطريق من التسامح مع كل نواتج المنهج المعيوب فسنجد عما قليل كوارث كبرىٰ تسعىٰ آلاف المؤسسات في العالم لنشرها وأسلمتها. وليست اللواطة الذكورية أو النسائيَّة بآخرها؛ لكن مبناها كلها علىٰ أصل واحد: التأويل المتعسف للقرآن ورد السنة النبوية. إنها المعركة القديمة الحديثة بين أهل السنة وغيرهم من الفلاسفة والطبيعيين والباطنيين وكل من حاولوا جعل الهوىٰ هو المعتمد في تفسير الوحي بل وحتىٰ في قبوله أو رفضه من الأصل عند بعضهم!

إن التسامح والتساهل مع تلك النظرية وهذا المنهج سيفتح الباب -لامحالة- لقبول نواتجه الخبيثة تحت شعار التأويل بلا حدود!

ومنذ متىٰ كان منهاج المسلمين في العقائد هو التسامح بلا حدود مع التأويل والمتأولين؟ إن كل باطل وخراب جاءنا من هذا الأصل المُدمِّر: أصل المثلث المقلوب في فضاء الأهواء.

أخيرًا، أختم هذا الباب بكلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التأويل غير المقبول للأمور العقدية عند المسلمين[١١]، وفيه فوائد عظيمة تحتاج

لتدبُّر: لما سلطت الجهمية التأويل علىٰ نصوص الصفات سلطت الباطنية التأويل علىٰ هذه الأمور وجعلوها أمثالًا مضروبة أريد بها خلاف حقائقها وظواهرها، وجعلوا القرآن والشرع كله مؤولًا ولهم في التأويل كتب مستقلة نظير كتب الجهمية في تأويل آيات الصفات وأحاديثها؛ فهذا القسم إن سُلِّط التأويل عليه عاد الشرع كله متأولًا لأنه أظهر أقسام القرآن ثبوتًا وأكثرها ورودًا ودلالة القرآن عليه متنوعة غاية التنوع فقبول ما سواه للتأويل أقرب من قبوله بكثير!

وهذه هي التي أبغي التأكيد عليها: قبول ما سواه للتأويل أقرب من قبوله بكثير.

أسأل الله أن يكون مقصدي قد اتضح تمامًا.





هامش الباب الأول

(١) DailyMail.UK: Caged in the human zoo & The New York Times: The scandal at the zoo.

(٢) فكرة (تولد كائنات من بعضها البعض) لها جذور في بعض مدارس الفلسفة الإغريقية فهي ليست المرة الأولىٰ في التاريخ بإطلاق.

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا. تفسير المنار: **٤/ ٢٦٦-٢٦٧** (ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٤) في تعليقه علىٰ كتاب الداروينية المتأسلمة بتاريخ ١٨ نوفمبر **٢٠١٣**. قام د. عمرو شريف بكتابة الآتي علىٰ صفحته الخاصة بموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك: «ما يقدمه كتاب الداروينية المتأسلمة من أدلة هي ضد العشوائية وليست ضد التطور. ونحن نوافقه عليها. أمام المعارضين للتطور ثلاث بدائل: (١) تقديم أدلة علمية حقيقية ضد التطور الذي عليه شبه إجماع في الأوساط العلمية، ولا يقبل في هذا المجال الكلام غير المتخصص. (٢) قبول مفهوم التطور الموجه حتىٰ وإن عجزنا عن تأويل بعض آيات القرآن الكريم فهذه مهمة قد تستغرق عشرات السنين وربما أكثر. (٣) الفصل بين كلمة الدين وكلمة العلم فيصبح ما لله لله وما لقيصر لقيصر . . أما رفض كلمة العلم اعتمادًا علىٰ (فهمنا) الديني فغير مقبول علميًا ولا دينيًا».

والرد الأول علىٰ هذا يكون بقراءة الجزء العلمي المتخصص في هذا الكتاب، للتعرف أولًا علىٰ صدق زعم أن الكتاب فقط ينفي العشوائية لا ينفي التطور! ثم التأمل جيدًا في بدائل د. عمرو التي أثبت بها صحة مناقشة المنهج ابتداءً

قبل مناقشة النظرية: فالدكتور عمرو يعترف أنه لا إجماع حاسم إنما هو (شبه إجماع). ثم بناءً علىٰ (شبه الإجماع) هذا -يطالبنا بالتغاضي عن عجز يعترف به عند الداروينميين في تأويل الآيات مظهرًا بهذا أنه حتىٰ هو نفسه غير مقتنع داخليًا بصحة أو حسن منطق تأويل الآيات ثم نجده يطالبنا بالصبر عشرات السنين حتىٰ تكتمل (مهمة) التأويل، وربما أكثر!! أما النقطة الأخيرة فهي الصريحة القاصمة: لا تدخلوا العلم في الدين - وإن قال العلم فلابد أن يخضع أهل الدين! ولا أعرف كيف أعلق أكثر من هذا وإن كنت قد علقت في حينها. لكن الكلام شديد الوضوح.

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ محمد نادر، الصديق الشخصي لدكتور عمرو شريف والذي أهدىٰ إليه أحد كتبه، قد تواصل معي يحييني علىٰ هذا الكتاب وكان مهمومًا بصورة فاقت تصوري، وكان يتهم د.عمرو شريف بأنه لا يرد علىٰ ثورته الغيورة لإيضاح أن هذا الذي يحدث مؤدٍ للمادية لا مؤدٍ للإيمان. فجزاه الله خيرًا ورد د. عمرو ردًّا جميلًا إلىٰ منهاج الحق.

(٥) Scott, Eugenie C; Branch, Glenn: Intelligent Design' Not Accepted by Most Scientists.

(٦) Richard Dawkins: Ignorance Is No Crime.

(٧) Committee on Culture, Science and Education: The dangers of creationism in education (Report),2007.

(٨) BBC News: "Design" attack on school science. 29. Sep, 2006.

(٩) Nationalarchives.gov.uk: Creationism teaching guidance (Gov. Report). 18. Sep, 2007.

(١٠) Expelled: no intelligence allowed. (Documentary).

(١١)ابن القيم. الصواعق المرسلة: ١/ ٣٨٤.

البَابُ الثَّانِي

مناقشة بعض فروض الداروينية
والتطور بأنواعه

تمهيد

سنناقش في هذا الباب باختصار وتبسيط بعض أهم نقاط ارتكاز زعم التطوريين عامة بأن نظريتهم صحيحة تمامًا لا يكاد يأتيها الباطل من بين أيديها!

وهذه النقاط تتلخص -إن جمعتها وجردتها- في تلك الثلاث العامة:

١) زعم منطقية سرديات التطور عقليًا وعلميًا ورسوخها إن قورنت بنظرية الخلق الخاص.

٢) زعم أن الأعضاء الأثرية أو غير المنطقي تركيبها: دليل علىٰ التطور.

٣) زعم أن علم البيولوجيا الجزيئية Molecular Biology قد حسم المعركة لصالح النظرية التطورية.

فهذه المزاعم الكبرىٰ يُضاف إليها اثنان خاصان بأصحاب نظرية التطور الموجة بإله/ الداروينية المتأسلمة:

١) الزعم بأن التعقيد غير القابل للاختزال irreducible complexity يحسم الأمر لصالح التطور الموجه بإله في مواجهة الملحدين والخلقويين علىٰ السواء.

٢) الزعم بأن نظرية الداورينية المتأسلمة متماسكة جدًا وتتلاشىٰ كل عيوب الدارويينة الملحدة.

❁ ❁ ❁

فكان المنهج المستخدم هو تفكيك هذه المزاعم بالترتيب من العام إلىٰ الخاص، بذكر أمثلة توضح خطأ تلك المطلقات غير الثابتة.

فلا سرديات التطور عامةً منطقية ولا هي راسخة.

ولا الأعضاء المزعوم أثريتها أو غير منطقي تركيبها هي كذلك بالفعل ولا العلماء اتفقوا علىٰ أثريتها بصورة ختامية.

ولا التعقيد غير القابل للاختزال يحسم فكرة التطور الإلهي أو الدارويينة المتأسلمة.

ولا نظرية الدارويينة المتأسلمة تقدم من التفسيرات ما يجعلها متناغمة أو مقبولة من القرآن أو السنة أو حتىٰ العلم المقبول عالميًا!

وعليه فقد جاء محتوىٰ الفصول في هذا الباب كإجابات علىٰ خمسة عناوين أسئلة إجابتها علىٰ الترتيب ستهز فكرة المُطلقات العلمية لديك والتي قد تؤدي بك إلىٰ تصديق المزاعم المذكورة سابقًا:

الفصل الأول: هل سرديات التطور منطقية وثابتة حتىٰ يقال أن النظرية تحمل قوة تفسيرية هائلة حاسمة ومتماسكة؟

الفصل الثاني: التعقيد غير القابل للاختزال -هل يُفسر التطور بنسبته إلىٰ إله؟

الفصل الثالث: هل الأعضاء الأثرية دليل علىٰ التطور؟

الفصل الرابع: هل تنظيرات الداروينية المتأسلمة متماسكة؟

الفصل الخامس: هل علم البيولوجيا الجزئية (علوم الجينات) بالفعل حسم الأمور؟

وسيكون الناتج النهائي المفترض لديك من هذا العرض السريع لتلك الأسئلة الخمسة وإجاباتها المرفقة بالمراجع والأشكال التوضيحية: أن الإطلاق خطأ شديد ومغالطة حقيقية. وأن الأمر بين الجذب والشد في أحسن الأحوال. وأن النظرية الداروينية لا تقدم الحل السعيد النهائي لنهاية تاريخ علم البيولوجيا كما يصور متعصبوها!

فنسأل الله التوفيق والسداد.



الفصل الأول

بعض سرديات التطور بين المضطرب علميًا واللامنطقي عقليًا

هناك قضية هامة جدًا في مقدمة مناقشة التطور لابد من التحدث فيها في البداية، وهي إجابة سؤال منطقي للغاية: إذا كان التطور (حقيقة) لا جدال فيها. فهل سرديات التطور منطقية وعقلانية ومتسقة علميًا بصورة لا جدال فيها؟

هل تفسيرات التطور للكائنات متماسكة حتىٰ يقال عن النظرية أنها (حقيقة ثابتة)؟

إن ما أفترضه هنا هو أن الإجابة محسومة: لا!

ليست التفسيرات متماسكة وفي أغلب الأحوال يشوبها اضطرابٌ علمي وعقلي غير هين ولا بسيط.

ومادام الأمر كذلك فالنظرية نفسها عند التطبيق تكون هشة غير متماسكة لهذه الدرجة التي يحاول الدراونة تصويرها.

ولاختبار مدىٰ صحة هذا الافتراض سنأخذ جولة بين بعض تفسيرات بنية الكائنات الحالية وسرديات التطور.

وسنبدأ من عند الكولاكانث.

❀ ❀ ❀

● ١- ارتجاجات الوهم!

حدث زلزال كبير عندما ظهرت الكولاكانث Coelacanth. وهي سمكة منقرضة اكتشف العلماء حفرية لها عمرها لا يقل عن أربعمئة مليون عام. وهي ذات إمكانات مدهشة: مخ كبير وعضو يشبه الرئة.

الدراونة في سعادة. فهذا إثبات أحفوري جديد علىٰ أن السمك بدأ الانتقال إلىٰ زواحف كما يؤمنون.

وهذه السمكة المنقرضة أحد أهم الحلقات المفقودة بين الأسماك والزواحف. وقد حُسِم الأمر للداروينيين بالضربة القاضية. انتهىٰ كل شيء.

ظل الأمر كذلك لسنوات طويلة. انتصار مجيد لنظرية التطور الداروينية.

لكن. لحظة!

تم اصطياد سمكة كولاكانث من ساحل جنوب أفريقيا عام ١٩٣٨!

اصطياد؟

نعم. السمكة لازالت موجودة. مفاجأة صاعقة. فمن المفترض أنها منقرضة منذ ملايين السنين. ماذا هناك؟

سمكة أخرىٰ يخرجها أحد الصيادين! وأخرىٰ! هناك العديد منها!

كيف؟ من المفترض أنها انقرضت منذ حوالي ٦٥ مليون سنة علىٰ الأقل! سمكة عمرها فوق الأربعمئة مليون عام ولازالت باقية علىٰ حالها برغم أنها أصلًا حلقة وسيطة كما يؤمنون؟!

المشكلة الأكبر بالنسبة لهم أنها كانت نفس ذات السمكة القديمة! من المفترض حسب تصورهم أن يجدوا العديد من الأنواع الوسيطة بينها وبين الزواحف. كأن يجدوا بعضها قد ظهر له قدم. بعضها قد طور المخ. بعضها له قدم ومخ. بعضها تطورت رئتاه. لكن لا. هي نفس السمكة بنفس الشكل ولا يوجد تنوع لها! سمكة إندونيسيا هي سمكة جنوب أفريقيا. اختلاف الزمان والمكان الهائل هذا لم يغيرها إلىٰ أنواع أخرىٰ كما تصوروا!

الأكثر إثارة للإحباط ما وجدوه بعد ذلك من اكتشافات.

إنها لم تكن رئة حقًا تلك الموجودة بداخلها -إنما كيس دهني أطلقوا عليه رئة أثرية! لم يكن مخًا متطورًا ولا كبيرًا هو ما تمتلكه للدرجة التي تجعلها بذات الأهمية التي وضعوها لها. سمكة عادية بريئة لها بعض مميزات بسيطة ومتواجدة منذ مئات الملايين من السنوات علىٰ نفس شكلها وحالها ما عدا اختلافات بسيطة جدًا مثل الموجودة بداخل أي نوع.

البعض راح يؤكد أن هناك تطورات خفيفة فيها لكن ثبت بعد ذلك

أن محاولاتهم نصرة هذا الادعاء كانت منطلقة من تحيز لادعاء مبدئي: أن السمكة قد تطورت. وهو ادعاء لا دليل عليه. لا توجد تنوعات كبرىٰ جذرية لهذه السمكة ولم تتطور إطلاقًا! فقط تمسكوا بفكرة أن هذه السمكة علىٰ المستوىٰ الجيني والمورفولوجي (قريبة) فقط من الأسماك الرئوية[١].

وفي محاولة يائسة من الدراونة أطلقوا عليها بعد ظهورها (الحفرية الحية)!

لقد اعتبروا أن ظهورها لا يمحو ما اعتقدوه. فقط يقوم بتعديله. فهو أول إثبات حقيقي لفكرة (الحفرية الحية Living fossil) التي نحتها داروين في كتابه أصل الأنواع. وهي تبعًا لكلامه: بقت إلىٰ يومنا هذا بسبب حياتها في مناطق مغلقة/محاصرة وبالتالي ظلت لا تتعرض لمنافسة حادة[٢].

لكن حتىٰ فكرة (الحفرية الحية) هذه لم تكن منطقية تمامًا! لقد انطلقت من تحيزات مبدئية أن هذه السمكة الحالية بالضرورة (حفرية) ظلت كما هي دون منافسة! وقد كان هذا خلاصة أحد أهم الأبحاث التي أجريت علىٰ هذه السمكة: أن التفسيرات البيولوجية الخاطئة التي نمت بناءً علىٰ كونها حفرية قادها التحيز المعيب في التفسير، ولو عممنا هذا التفسير علىٰ أنواع كثيرة من الأسماك الأخرىٰ لأطلقنا عليها جميعًا (حفريات حية)![٣].

إذن تأمل: هذه الحالة العلمية لسمكة واحدة في سلسلة التطور

المزعومة مع أن هذه السمكة مكتشفة منذ قرن كامل. ومع ذلك تعددت السرديات والآراء لتفسير حالة هذه السمكة وحدها!

أولًا قيل أنها حفرية لسمكة منقرضة تطورت إلىٰ زواحف في سلسلة التطور.

ثم اكتُشِفَ وجودها فقيل أنها حفرية حية لم تتطور.

ثم قيل إنها ليست حفرية حية أصلًا وقيل أن من يدعي هذا منحاز لنظرية التطور مبدئيًا!

تأمل إذن حجم الاضطراب الحادث هنا، وأخبرني عن مدىٰ التماسك المزعوم لتفسيرات سلاسل التطور بينما سلسلة هامة ومفصلية تفسر زعم تطور الأسماك إلىٰ زواحف -ما زال الاضطراب حادثًا فيها عند أحد أهم أسماك تلك السلسلة المزعومة! هذا وهي سمكة متوجدة بين أيدينا حاليًا وبرغم ذلك هناك خلافات حولها!

لكن. ماذا تفيدنا هذه الحالة أكثر مما سبق؟

الحقيقة أنها مفيدة جدًا في موضع آخر: فالدراونة يؤمنون أن الأسماك تطورت إلىٰ زواحف مع الوقت. وهكذا ظهرت الطيور بعد هذا من الزواحف. وما دليلهم؟ حفريات مثل الكولاكانث. قاموا باكتشافها وتحميل نظرياتهم المنحازة عليها. فهناك حفرية الأكانثوستيجا Acanthostega مثلًا: زاحف يعيش في الماء الضحل له أقدام. وهم يعتبرونه منقرضًا حتىٰ الآن. قام العلماء

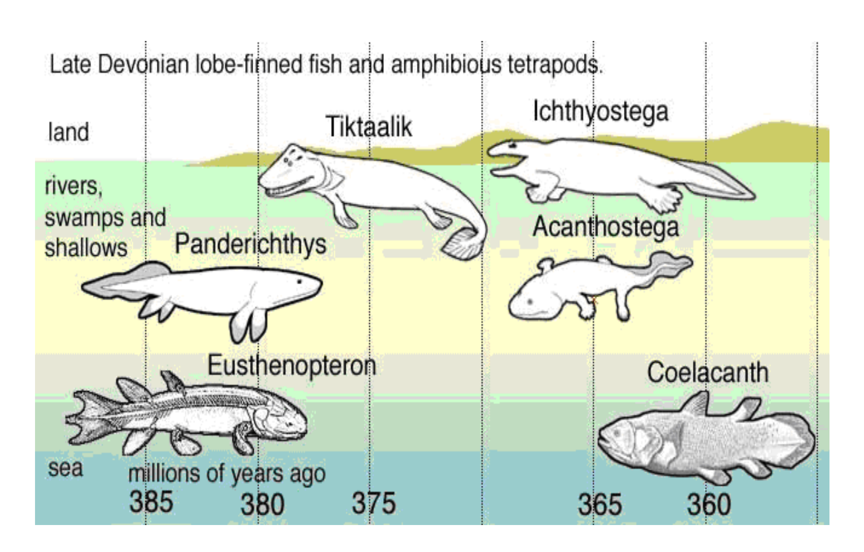
باعتباره قد تطور من الأسماك العادية -التي رغبت في استنشاق بعض الهواء ربما!- وهكذا اعتبروا أنهم قد سدوا الفراغات. الكولاكانث تطور إلىٰ أكانثوستيجا. وكذلك حدث مع حفرية التيكتاليك هي الأخرىٰ. وهي زواحف برمائية منقرضة اعتبروها مفاصل بين الأسماك والزواحف في سلسلة التطور(٤).

لكن ماذا لو ظهرت يومًا هذه الكائنات؟ إنه من المعروف علميًا أن ما اكتشفه العلماء من الكائنات مرشح للزيادة باستمرار. وهي زيادة غير محدودة. في عام ١٩٣٨ كانوا يعتبرون أنفسهم قد اكتشفوا كل شيء مع ظهور الكولاكانث لكن الأيام أثبتت سذاجتهم - كما قلنا من قبل كل بضعة سنوات يهتفون أنهم شارفوا الوصول إلىٰ المجد ثم يحتارون عندما يكتشفون جهلهم كلما توغلوا في العلوم!- فلو ظهرت هذه الكائنات يومًا واكتشفوا أن صفاتها التشريحية الداخلية (الأعضاء) ليست كما يظنون -مثلما حدث مع الكولاكانث- فهل سيعترفون بانهيار المسار الذي كانوا قد رسموه لتطور الأسماك إلىٰ زواحف فطيور؟! أليس هذا مرشحًا بقوة بعد حادث الكولاكانث؟

ثم تكون المشكلة الأخرىٰ: كيف أن كائنًا متطورًا مثل الأكانثوستيجا، والذي يستطيع العيش في الماء والأرض. كيف له أن ينقرض منذ ملايين السنين برغم أنه أكثر تعقيدًا وإمكاناته أكثر تطورًا من الكولاكانث؟! إنه قادر علىٰ العيش في الماء والهواء. العوم والزحف. ومع ذلك فقد انقرض هو وباقي الزواحف والأسماك! هل

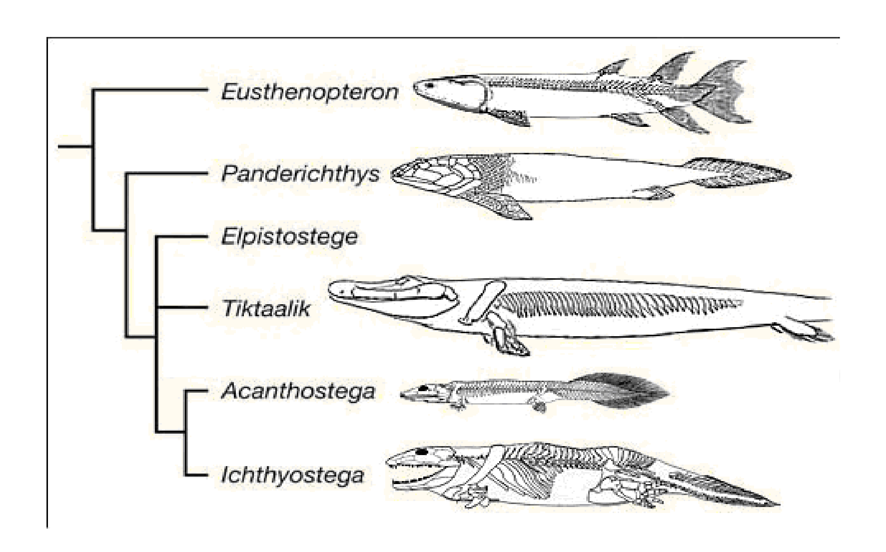
هناك منطق راسخ غير مهتز في هذا المسار التسلسلي للتطور والبقاء أو الانقراض؟

بالتأكيد تفكير بسيط سيقودك للحقيقة: هذه مسارات تطورية مضطربة، ما يتم إثباته اليوم قد يجد ما ينفيه بالغد القريب أو البعيد فيزيد السلسلة التطورية اضطرابًا.



شكل- ١

سلاسل الوهم: من كولاكانث إلىٰ أكانثوستيجا فتيكتاليك. الوهم باستخدام المُنقرضين!



شكل- ٢

سلاسل الوهم: كيف تدشن تفسيرك المزعوم علميًا بصورة محترفة؟!

ضع صورة للهياكل العظمية بترتيب متناسق من الأسماك للزواحف!

- ٢- رغب شبيه ظبي في السباحة فتحول إلىٰ حوت!

كيف تطور الحوت؟

بحسب آخر التفسيرات التطورية الحديثة:

فقد رغب (الإندوهيوس Indohyus) -وهو كائن منقرض يشبه الغزلان وفي حجم القطط المنزلية- في النزول إلىٰ الماء. ومع الوقت تعلم العوم وأصبح يعوم فاستقر هناك حتىٰ أصبح الحوت الحالي!

لامزاح هنا ولا سخرية! هذا هو السرد الذي يؤمن به كثير من

التطوريين حاليًا لكن بنموذج تفسيري يحاول ارتداء قناع الجدية أنتجه فريق عمل البروفيسور د. ثويسِن أستاذ الأناتومي والذي يعتبر من كبار إن لم يكن أكبر المهتمين علميًا منذ سنوات طويلة بسلسلة تطور الحيتان، وقائد فريق أبحاث بكلية الطب في جامعة شمال شرق أوهايو!

والحقيقة أن هذا مدهش! لقد خرجت الأسماك من الماء للهواء باعتباره تطورًا لظروف أفضل. ثم فجأة رغب أحد أشباه الظباء في تجربة الماء فنزل فيه وتطور إلىٰ حوت؟! -الأستاذ ثويسِن «يخمن بأن سلف الحيتان انتقلوا للماء كنوع من ميكانيزم تفادي الحيوانات المفترسة، وأنهم لم يقوموا بتطوير سلوك غذائي مائي محدد حتىٰ وقت متأخر»[٥]!

هل الماء جيد أم سيئ؟ قد يجيبك بأن هذا خاضع للظروف، والأمر كله في النهاية خاضع للتخمينات، مبنية علىٰ أدلة تحتاج لبحث مكثف في فضاء تأويل علمي واسع كالفضاء الذي يعمل فيه فريق بحث البروفيسور!

ثم كم عدد الطفرات التي يحتاجها تحوُّل هذا الكائن المنقرض شبيه الظبي إلىٰ حوت؟

لقد أراد الفيلسوف وعالم الرياضيات David Berlinski إثبات خرافة فرضية التطور رياضيًا[٦] فراح يحسب احتمالات تحول بقرة إلىٰ حوت مع تغيُّر الجهاز التنفسي ليلائم الماء وتغيُّر الأطراف وتغيُّر الجلد وتغيير جهاز التناسل والتوليد وكل شيء فيها؛ فوجد أمامه عددًا هائلًا

يحتاج لملايين من السنوات أكثر بكثير جدًا مما هو مفترض! هذا بفرض أن البقرة قد رفضت الطعام الأرضي ونزلت إلىٰ الماء لتبحث عنه. لكن العلم الحديث يخبره بأنها ليست بقرة. بل كائن منقرض أقرب للظبي! كأن المسألة قد حُلت هكذا!

إن الأمر بحاجة إلىٰ تأمل: هل هذا منهاج علمي فعلًا؟ أليس هذا تحيزًا مبدئيًا لنظرية التطور ينطلق منه العلماء لتجميع عدة كائنات مختلفة بعضها منقرض وبعضها موجود لصنع سلسلة متوالية تؤدي إلىٰ شكل الحوت الحالي مهما كانت السلسلة غير منطقية؟

لقد كان اختيار الإندوهيوس بالذات (شبيه الظبي) كجد للحوت الحالي هو لاعتقادهم أنه حيوان نصف مائي semiaquatic وبالتالي ساعده وجوده في الماء علىٰ التطور إلىٰ حوت. فهو يمتلك بعض الصفات الجينية التي تساعده علىٰ التأقلم في الماء. تمامًا مثل فرس النهر. وبدلًا من اعتبار هذا مجرد كائن آخر يملك مميزات شبيهة لما في الحوت وفرس النهر قاموا بجعله جد الحوت الحالي كي تكتمل تلك السلسلة الناقصة لأسلاف الحيتان!

كان ينقصهم موضع في السلسلة كجد للحوت فإذ بهم يعتبرونه الإندوهيوس المنقرض. وربما لو كان فرس النهر منقرضًا لهللوا ألف مرة له باعتباره جد الحوت الحقيقي الذي لا مرية فيه. لكن وجوده حاليًا مع دراسته جيدًا أثبت أنه ليس سلفًا تطوريًا له رغم حجم التشابه في الكثير من الصفات المميزة للحيتان! هذه إحدىٰ أهم الملاحظات علىٰ

الدراونة: الموجودات الباقيات لا تساعد خيالهم العلمي قدر المعدومات المنقرضات!

دراسات متحيزة ومشكلة سمكة الكولاكانث تظهر من جديد: أن الكائنات المنقرضة يتم وضعها في سلاسل التطور وعلىٰ المتضرر إثبات العكس! يصنعون سلاسل وهمية ثم يتحدث بعضهم عن كونها (حقائق) ومن يسخر منها ليس بعالم بل عليه القبول بالأصل ثم الجدال في الدليل أو الفرع!

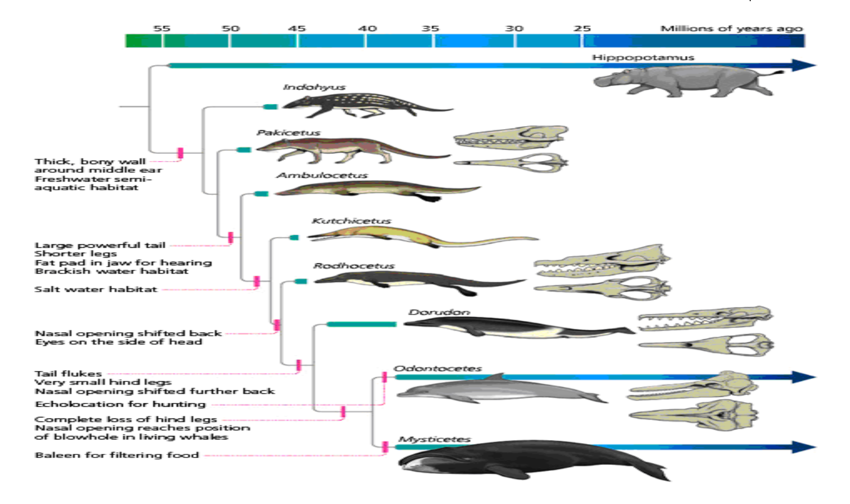
يخبرك أن هذا الحيوان هو جد الحوت فإذا رفضت هذا وسخرت منه سألك: إذن من جده الحقيقي الأصلي؟ ومن أخبرك أنه لابد من وجود جد أصلي؟!!

هذه مشكلة التعامل مع التطور علىٰ أنه حقيقة ثابتة! يخبرك بتفسيرات لا منطقية ويقدم لك سلاسل وهمية لتفسير شكل الكائنات فإن رفضت هذا قال لك أنه لا بديل. لماذا لا بديل؟ لماذا أنا مطالب بأن آتيك بسلسلة تطورية بديلة؟ لأن التطور حقيقة! من قال أنه حقيقة وأنت عاجز عن تقديم سلسلة تطورية معقولة محكمة؟! هكذا نجد أنفسنا في مغالطة دائرية لا فكاك منها، ومصادرة علىٰ المطلوب تجعلك خارج النسق مهما صنعت: فالمقدمة التي ينطلق منها كحقيقة هي أن التطور حقيقة أكبر مني ومنك!

أليس خلق الكائنات مباشرة يحمل قدرة تفسيرية أكبر من تطورها؟

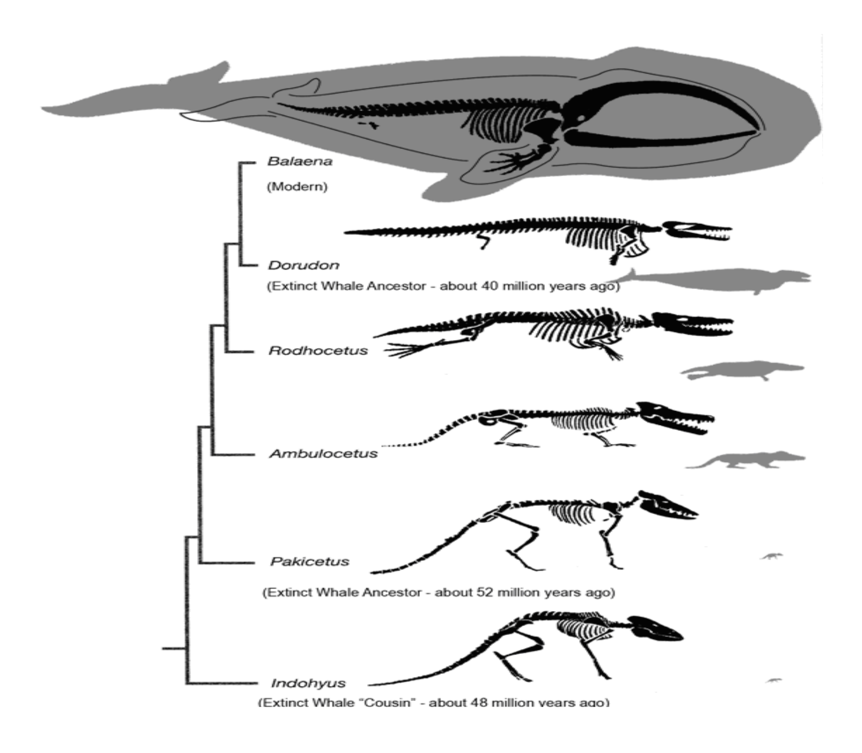
نعم يحمل قدرة تفسيرية أكبر لكنه يعزو الأمر إلىٰ غيبيات. والعلم

لا يقبل غيبيات. هذا هو أصل الأزمة! وهذه أصلًا مصادرة ثانية لا يقبلون فيها نقاش: أنه لابد من تقديم تفسير علمي طبيعي لا ينطلق من غيب! فالأصول التفسيرية للعلوم الغربية التي فرضتها الكنيسة البيضاء لابد أن تعزو أي نظرية إلىٰ طبيعة مادية لا إلىٰ غيب. أي تفسير يمحو الوحي من المعادلة يكون قابلًا للنقاش وأفضل من أي تفسير عقلاني موافق للوحي والعلم! وقد نقبل هذا فيما ليس فيه تفسير قرآني متواتر لا يقبل التأويل وأحاديث نبوية ساطعة صحيحة، لكننا بالتأكيد لا نقبله فيما لم يحقق هذا الشرط -فمالنا كمسلمين وما لشروط الكنيسة البيضاء؟



شكل- ٣

سلاسل الوهم: (الخطوة الأولىٰ) ارسم سلسلة تطورية فيها ظبي قزم في البداية وحوت في النهاية!



شكل- ٤

سلاسل الوهم: (الخطوة الثانية) دشن سلسلة الوهم السابقة بطريقة علمية احترافية!

- **٣- تطور القرش الأبيض:**

عند تشريح سمكة قرش أبيض منذ بضع سنوات هتف دوكنز منتصرًا أنهم عرفوا كيف تطورت سمكة القرش هذه. لقد اكتشف أن جلدها خشن به نتوءات حادة ميكروسكوبية تشبه الأسنان. فجاء السرد

الخيالي المعتاد من لا مكان -والتطوريون يملكون خيالًا واسعًا بصورة لا منطقية كي تساعدهم علىٰ تلفيق سلاسل التطور المزعومة: لقد كانت سمكة القرش عادية لكنها طوت جزءًا من جلدها لاحتياجها إياه في الطعام وبالتالي أصبح الأسنان الحادة الحالية! يقول دوكنز عن جلد القرش: إنه مصنوع من أسنان مصغرة جدًا والتي هي مماثلة للأسنان الكبيرة التي تستخدمها أسماك القرش للغذاء، يبدو أنه غالبًا ما حدث في التطور هو أن الأسنان الضئيلة في الجلد صارت الأسنان التي تستخدمها للأكل[٧].

نعم. هذا هو السرد الذي اهتدت إليه عقولهم العلمية. ولاحظ كيف قفز من الملاحظة للنتيجة بسرعة ثم إنه حتىٰ النتيجة عرضها بصيغة ضعيفة «غالبًا ما حدث في التطور هو . .»**!**

لماذا لم يتطور فك هذا القرش ليصبح أكثر متانة في قضمه للغذاء وهي نقطة الضعف الهائلة والحادثة بسبب كون الفك منفصلًا عن الجمجمة؟ مادام التطور يجري ما يشاء من التطورات التي تفيد الكائن؛ لماذا لم تقم السمكة بهذا الفعل لتقوي نفسها؟ لقد طورت جلدها إلىٰ أسنان عن طريق ضغوط الطبيعة؛ فما الذي منعها من صنع الأمر الأيسر: وصل عظم الفك بعظم الجمجمة؟! هذه ملحوظة أخرىٰ هامة علىٰ تفسيرات الدراونة: التفسيرات اعتباطية ولا توجد قاعدة مطردة. هذه ظهرت لماذا؟ لأنها نافعة. هذه اختفت لماذا؟ لأنها غير نافعة! هذه ظهرت لماذا وهي أقل نفعًا من السلف، وهذه اختفت لماذا وهي أكثر

نفعًا من الخلف؟ لعلة غير ظاهرة!

وهل الأمر بهذا اليسر حقًا؟ تحويل جلد إلىٰ أسنان مُركزة في فتحة الفم فقط؟ جلد إلىٰ أسنان وبتطور طبيعي أدت إليه الطفرات؟

مرة أخرىٰ نعود إلىٰ إشكالية (أعطني سردًا آخر). والمشكلة أنه حتىٰ هذا السرد المتواجد حاليًا فيه أزمة تواجد قرش Megalodon بداخل سلسلة التطور نحو القرش الأبيض، وهو نوع منقرض ضخم جدًا يصل طوله المتوقع إلىٰ ما يزيد عن العشرين مترًا وقد تواجد ما بين مليونين إلىٰ عشرين مليونًا من السنين!

ووجود الميجالودون في هذه السلسلة مُشكلٌ أيضًا. فالمكتشفات التي وجدها التطوريون جعلتهم يميلون إلىٰ تفسير لا يربط القرش الأبيض الحالي مع الميجالودون لوجود اختلافات بين النوعين في الأسنان. فأصبح الربط الأكثر قبولًا هو بين القرش الأبيض وقرش ماكو المتواجد حاليًا[٨]! أي أن قرش Megalodon أصبح مجرد قريب آخر لا (سلف)[٩] للقرش الأبيض الحالي! أليس هذا انهيار آخر لسلسلة تفسيرية كانت ثابتة؟!

ثم ألا يعد من العجيب قبول تفسير دوكنز اللاعقلاني لتكيُّف القروش عن طريق تحول جلدها إلىٰ أسنان وهو ما يفسر رقة أسنانها الحالية بينما قرش الميجالودون المنقرض أسنانه قوية جدًا وأكثر فائدة من الأسنان الحالية؟!

إن تكيف الكائنات الحية مع وسطها المحيط adaptation أو ما يمكننا أن نسميه التطور المصغر -يتم استخدامه بنطاق واسع جدًا كتفسير للتطور الناقل من نوع إلىٰ نوع ولتبرير أي سيناريو تطوري!

❀ ❀ ❀

هكذا بعد استعراض تلك السرديات لتطور ثلاث حيوانات -وقس علىٰ هذا سرديات تطور عشرات الكائنات الأخرىٰ- علمت أنهم كلما اكتشفوا بضع حفريات لكائنات منقرضة شبيهة لها يضعون سرديات طويلة بعضها عجيب ولا يكاد واحد منها يخلو من الفجوات واللاتناسب العقلاني والرياضي. ثم يخبرونك أن هذا هو المتاح وإن اعترضت فاقترح سرد آخر! لابد ألا تتحرك فقط خارج قضيب نظرية التطور وإلا أصبحت شخصًا معاديًا للعلم!

إذن من المفترض أن أسلم بهذه التفسيرات الناقصة المضطربة لوجود الحيتان والزواحف والطيور وإلا أصبحت شخصًا غير علمي؟! أليس هذا دليل آخر علىٰ انفصال العقلانية عن العلم البيولوجي في تلك القضية!

وهذا هو ما كنت أريد إثباته في هذا الفصل، أن السرديات غير متماسكة لا منطقيًا ولا عقلانيًا ولا علميًا ولا رياضيًا حتىٰ. بل يتم تحديثها باستمرار بسبب عدد الفجوات الكبير والمكتشفات العلمية التي تظهر مع الوقت.

إذن مادامت النظرية عند التطبيق ليست بهذا التماسك والحسم -لماذا يحاول البعض الإيهام أنها (حقيقة مطلقة) لا مجال لرفضها؟

إن التعقيد المركب للكائنات يمنع هذا التسليم المطلق بصحة نظرية التطور : الفم والأسنان وتعقيد تركيبهما مثلًا يجعل من مسألة تطور الجلد إلىٰ أسنان لأن السمكة احتاجت لذلك كي تتكيف في بيئتها أشبه بالمزحة إن قورن بما تحتاجه السمكة فعلًا منذ قرون طويلة ألا وهو التحام عظام الفك بالجمجمة. لو كان الأمر بهذا الشكل فلماذا لم يتطور جزء من جلد الإنسان إلىٰ عضو يطير به ليشبع الرغبة التي يريدها الإنسان منذ آلاف السنين؟ هل لو جرب الإنسان وكافة نسله السقوط من جبل لمدة مليوني سنة سينبت لأحدهم ذات مرة جناح يطير به وبالتالي يورثه لأولاده وينتج نسلًا من البشر الطيور؟ مثال سخيف؛ أليس كذلك؟ مع ذلك نقبل مثله ببساطة في حق كائنات أخرىٰ! ربما الاختلاف فقط أنه سيقول لك: لو أن الإنسان عاش بشكل ما في الهواء لمدة مليون عام؛ فسيتحور ذراعه لأجنحة كي يتكيف مع بيئته!

إن الكائنات مركبة بتعقيد غير قابل للاختزال وتفرد مدهش يمنح أهمية وخصوصية لكل عضو في كل كائن. وهي الفكرة العبقرية التي سيعرضها Michael Behe في كتابه الشهير الذي سيصبح مرتكزًا رئيسًا لأصحاب نظرية التطور الموجه الإلهي والخلقويين الذين يؤمنون بخلق الله لكل كائن بصورة متفردة. ولكن فكرة Behe ستواجه حربًا، عرَّض نفسه لها بإيمانه بالتطور الموجه وتسليمه بتلك المقدمة ابتداءً.

وسيواجهه الملاحدة من هذا الثغر الذي فتحه علىٰ نفسه بأن التصميم ذكي لكن جاء بالتطور لا بالخلق المباشر. فكيف هذا؟

ومن هو Behe وما فكرته؟



الفصل الثاني

التعقيد غير القابل للاختزال
هل يُفسر التطور بنسبته إلى إله؟

كان Michael Behe عالم الكيمياء الحيوية الشهير من أوائل من تحدثوا عن نظرية (التعقيد غير القابل للاختزال irreducible complexity) وضرب مثالًا عليه بسوط البكتيريا المتحرك[١٠].

والمستدل به ببساطة أن سوط البكتيريا الذي يجعلها تتحرك هو واحد من أقوىٰ المواتير الممكنة، وعمله هو نفس عمل الموتور المتطور. وأي محاولة لاختزال أو حذف جزء من هذه الميكانيكية التي تحرك السوط تعني أنه لن يعمل وسيتوقف فورًا. يمكن القول أن هذا نموذج متطور من فرضية (صانع الساعة) القديمة: إذا وجدت ساعة ملقاة علىٰ الأرض (تكوين مركب ذكي من تروس لا يمكن فقد جزء منها) فلابد من وجود صانع لها[١١]. ودلل Behe بذلك علىٰ أن هذا الشكل الميكانيكي المعقد والمذهل لابد من عقل صانع يقوم به. وبالتالي كان هذا دليلًا راسخًا علىٰ وجود إله وإلا فالتطور بالانتقاء العشوائي للصفات المرغوبة لن يستطيع تطوير هذه الميكانيكية ذاتيًا.

لكن عندما قرر العالم الأحيائي الدارويني الكاثوليكي Kenneth Miller[١٢] والدراونة الملحدون نقد نظريته جاؤوا من الجهة التي تعيب نظرية Michael Behe: وهي إيمانه بالتطور أساسًا وليس بالخلق المباشر!

لقد انتقدوا نظريته عن سوط البكتيريا المركب كالموتور والذي لا يمكن اختزال أي بروتين منه وإلا توقف فذكروا أن هناك شبيهًا له في بكتيريا أخرىٰ ويفقد بعض البروتينات ويعمل كمحقن. وظنوا أنهم بهذا قد ضربوا نظريته خاصة أنهم انتقدوا فكرة (مصيدة الفئران) التوضيحية، والتي جادل بها عقليًا: أن أي جزء مفقود من مصيدة الفئران الخشبية سيمنع عملها -فقالوا أنها يمكن أن تعمل كمشبك بدلًا من المصيدة إن فقدت جزءًا منها! وهذا هو ما حدث في سوط البكتيريا الذي عمل كمحقن بعدما فقد جزءًا آخر. والحقيقة أنهم فضحوا أنفسهم وهو قد ورط نفسه بهذه الحجج من الجانبين! كيف؟

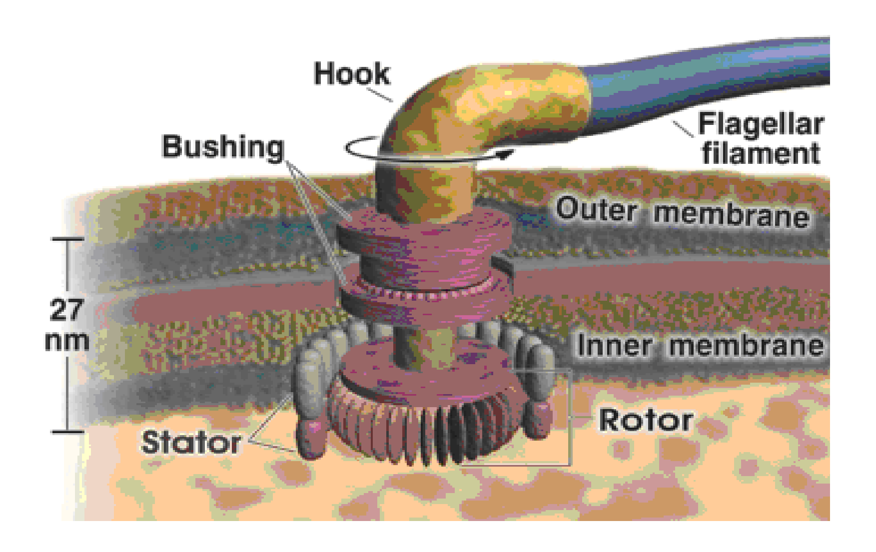
لقد كان Behe يتحدث عن (التعقيد) في إطار التطور. لكنه لو تحدث عن (التعقيد) في إطار الخلق المباشر الإداء وظيفة معينة ما وسعهم الهجوم عليه من هذا المنطلق، لأن الإبرة التي في بكتيريا أخرىٰ قد تشابهها أينعم؛ لكنها لا تقوم بنفس وظيفتها، إنما بوظيفة ضرورية للبكتيريا الحاملة إياها، وهي المحقن. فهل هذا يدل علىٰ اختلاف تطور أم علىٰ أن الله خلق نوعين كل منهما يشبه الآخر ومع ذلك لكل منهما وظيفة تخدم نوعه؟

لو تحدث Behe عن الخلق المباشر لكانت نظريته أكثر اتساقًا مع نفسها ولإثبت التصميم الذكي كذلك، لكنه لم يرض بالخروج عن هيمنة نظرية التطور فأتوه من موطن التسلل الذي فتحه بنفسه!

وكذلك يفعل معتنقو الداروينية المتأسلمة: إن كان قد حدث تطور فالنوعان قد جاءا من أصل بكتيري مشترك ومعنىٰ ذلك أنه قد حدثت طفرة عشوائية وظلت البكتيريا تعمل بأسلوب آخر في وظيفة أخرىٰ. ولم يفسر لنا أحدهم لماذا لم نجد ملايين الطفرات المفترضة كي نجد ملايين الأشكال والأنواع من الأسواط مادام هذا سوط وهذا سوط شبيه خرج من التطور. لماذا لم يتطور السوط إلىٰ آلاف الأنواع الأخرىٰ؟ لماذا اقتصر علىٰ عدد محدود جدًا إذا قيس بجوار كم الاحتمالات اللانهائية للتطور؟

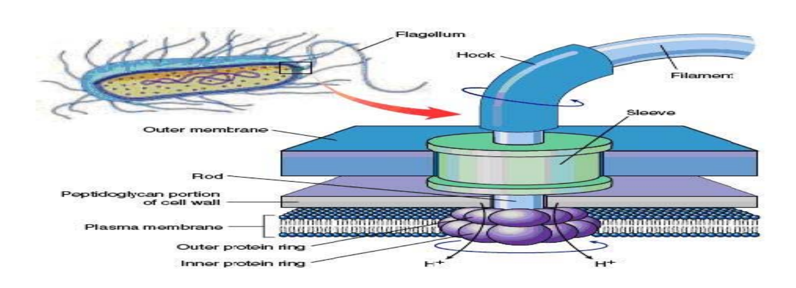
إن نظرية Behe لا تستقيم إلا بإضافتها إلىٰ نظريات الخلق المباشر للكائنات، حيث جعل الله لكل منهم أعضاء ذات أشكال معقدة مركبة تؤدي وظيفة تخدمها بصورة أو بأخرىٰ. ولا يمكن معارضتها باستخدام نظرية (الأعضاء الأثرية) لإثبات عدم حاجة الكائنات لبعض ما تمتلكه من أعضاء أو نقصان تصميمها (كالحلمات في الرجال وضعف الجهاز الهضمي للأرنب) لأن كافة نظريات الأعضاء الأثرية والأعضاء الزائدة تدور في نطاق الجهل بفائدتها الكلية وبالتالي لا منطقية الحكم عليها مبدئيًا بأنها زائدة أو معيبة.

وسنتحدث عن هذا في الفصل القادم.



شكل- ٥

حقيقة: سوط البكتيريا. مُحرِّك الإعجاز!



شكل- ٦

حقيقة: تتحرك البكتيريا بهذا المُحرِّك المُذهل في تركيبة. لكن مع ذلك يؤمن الملاحدة أن هذا التركيب جاء مصادفة طبيعية!

التعقيد غير القابل للاختزال لا يستقيم حقًا إلا مع الخلقويين، والردود عليه من الملحدين ودراونة التطور العشوائي لا ينفي التعقيد المركب الماهر علىٰ الإطلاق، بل دارت فقط في إطار نفي كلمة (غير القابل للاختزال) وراحت تبحث عن عضو شبيه بالسوط يؤدي وظيفة أخرىٰ ثم هتفت في انتصار زائف أنها قد نفت عدم قابلية الاختزال! هذا كان ليصبح حقيقيًا لو كانت تؤدي نفس الوظيفة بعد اختزال تلك البروتينات منها، لكن بما أنها لا تؤدي نفس الوظيفة علىٰ الإطلاق فلم التحدث عن صلة قرابة وظائفية؟!

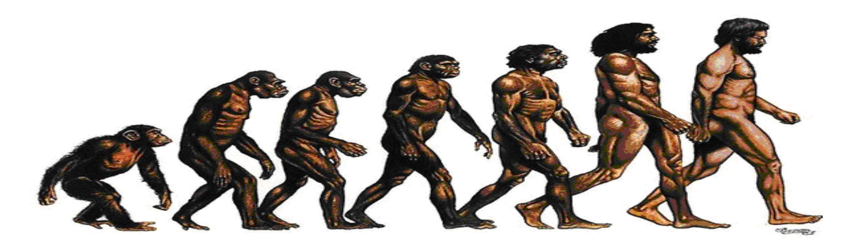
الحقيقة أن هذا المفهوم هو أحد أصول خلافات التطوريين مع أهل الإيمان. فهم يصرون علىٰ البحث عن شبيه لكل كائن ثم التهليل فرحًا بأنه قريبه من جهة السلف أو الخلف! يجدون جماجم لقردة متعددة الأشكال في فترات مختلفة من التاريخ فيصرخون مهللين أنها سلف الإنسان! انطلاقًا من تحيز مبدئي لا سبيل لوأده عندهم وهو أن كل مجموعة كائنات متشابهة ظاهريًا -قد تطورت من سلف مشترك. وكل الأسلاف المشتركة قادمة -هي الأخرىٰ- من سلف مشترك آخر!

ولا سبيل إطلاقًا لمحاولة إقناعهم بعبثية هذه التصرفات من تجميع كافة الكائنات المتشابهة في مجموعة واحدة من مملكة الحيوان حتىٰ لو أثبتت الأصول الجينية وجود اختلافات أكبر. كما حدث مع الشيمبانزي الذي وجدوا تشابهًا جينيًا بينه وبين الإنسان ومع ذلك كلًا منهما متواجد إلىٰ الآن ولا شبه ولا علاقة بين بعضهما البعض، وبرغم وجود اختلاف

جيني أكبر مع قرد نياندرثال لكنهم صمموا قبلًا لزمن طويل أنه أحد أسلاف الإنسان فقط لتشابهه في التركيب الظاهري بالبشر. ثم مع الوقت اعترفوا أن حجم الاختلاف أكبر من المعقول فقالوا أنه هو والإنسان تطورا من نوع آخر أصلًا(١٣) ولم يكن نياندرثال سلفًا له!

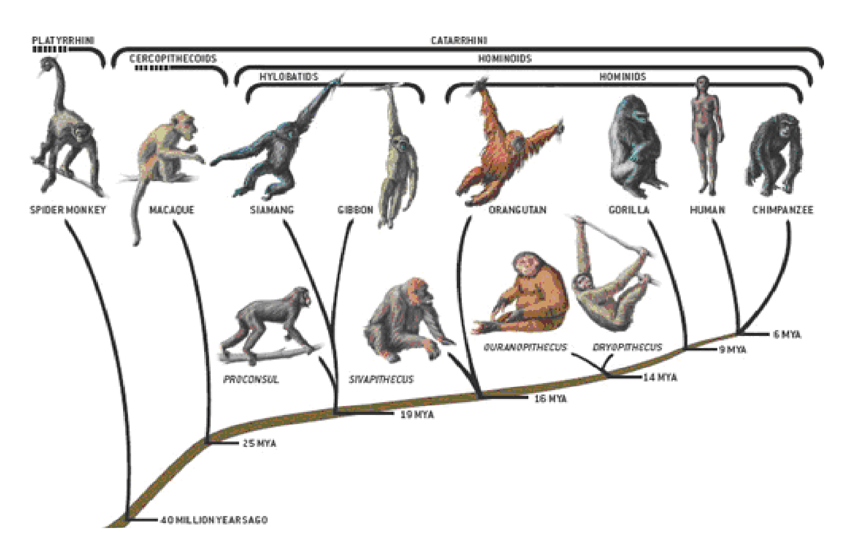
إن سرديات التطور نادر منها ما يقبله العقل السليم. لكن العلم الصادر من الكنيسة البيضاء يدعمها. مزيد من انفصال المعقولية عن العلمية. ومزيد من المسافة بين ضلعي المثلث. الذي يصر الدراونة العرب علىٰ قلبه وجعل الوحي في أسفله محكومًا بهما.

ومع ذلك يصرخ الدراونة الملحدون والدراونة الإلهيون معًا في وجهك بفكرة الأعضاء الأثرية لإثبات التطور. الفريقان يشتركان معًا في مبدأ النظرية ويهاجمون أي مؤمن بالخلق المباشر للكائنات بها. فما هي الأعضاء الأثرية هذه؟



شكل- ٧

سلاسل الوهم: من شيمبانزي إلىٰ إنسان؟ عدِّل معلوماتك. صارت نظرية أثرية!



شكل- ٨

سلاسل الوهم: عدِّل معلوماتك بتحديث الوهم! الشيمبانزي والقردة قد صاروا أبناء عمومتك لا أجدادك!



الفصل الثالث

لا تطور؟ إذن ما فائدة الأعضاء الأثرية؟!

(كل عضو نجهل فائدته أو دوره بصور كاملة -هو لابد عضو أثري. أي مجرد أثر زائد لا فائدة له ناتج عن تطورنا من حيوانات سابقة)!

هكذا كان تفسير علماء التطور منذ وقت طويل لأي عضو لا يعرفون فائدته أو دوره، ما نجهله هو -ببساطة- لا فائدة منه! نفس الغرور العلمي كما هو لا يتغير!

والحقيقة أن قائمة الأعضاء الأثرية الضخمة التي ضمت الزائدة الدودية وبعض الأسنان وكثير من الأعضاء الأخرىٰ، والتي أصدرها Wiedersheim في بدايات القرن الماضي[١٤] قد تقلصت مع الوقت حتىٰ أصبحت هي نفسها -أي القائمة- مجرد أثر لا قيمة له سوىٰ إثبات غرور الإنسان! لقد تم اكتشاف أهمية الكثير من الأعضاء التي جعلها Wiedersheim مجرد آثار تطورية لا فائدة منها. وظهرت عشرات البحوث عن الزائدة الدودية وفائدتها والغدد وأهميتها وكل هذه كان يعتبرها مجرد آثار!

في مجلة Scientific American الشهيرة كان القراء في عام ٢٠١٢ علىٰ موعد مع مقال علمي في غاية الأهمية نخبرك بعنوانه فقط لتفهم محتواه (Your appendix could Save your life: زائدتك الدودية قد تنقذ حياتك)[١٥]!

بعد مقدمة تظهر تميز هذا الطبيب الذي سيتم استضافته، يتم شرح دور Bill Parker بروفيسور الجراحة الأمريكي عن أهمية تلك الزائدة طوال المقال معددًا المزايا الهائلة التي تقدمها لحفظ حياة الإنسان وشكل أبحاثه. منبهًا إلىٰ كونها أثبتت أن المرضىٰ الذين قاموا باستئصالها أكثر عرضة لهجمات أو لتكرار الإصابة ببكتيريا معينة ممن يملكونها. حيث تؤدي وظيفة كبيرة في مقاومة أنواع من البكتيريا الشرسة بداخل الأحشاء. الخلاصة: الزائدة الدودية ليست عديمة الفائدة علىٰ الإطلاق[١٦]!

هكذا تحولت من عضو أثري مهمل إلىٰ عضو ينقذ حياة الإنسان ولا غنىٰ عنه!

هذا مثال واحد ونموذج لن أظننا سنكون مبالغين إن عممناه -لكن هل فهم العلماء الدرس؟

أبدًا. لقد ثبتوا الفكرة -كما هو طابع الدراونة ملحدين أو إلهيين- وأضافوا أعضاء أثرية أخرىٰ جديدة بدلًا من القديمة التي تم اكتشاف أهميتها وفائدتها!

ثم بدأوا التوسع في نصرة فكرتهم بادعاء وجود عيوب خلقية لا يفسرها الخلق المباشر: مثل عيوب تركيب العين. فالدراونة الملحدون ادعوا عدم وجود إله لأن شبكية العين ليست مصممة في أفضل حال، وبها بعض العيوب بالمقارنة بعيون حيوان كالأخطبوط، أما أتباع الداروينية المتأسلمة فقالوا بأن هذا لا ينفي وجود إله إنما الخالق وجه الأمر لاحتياج الإنسان والتطور جاء قدر احتياجه.. بالتدقيق تجدها حجّة انعدام الكمال والأحسن المستخدمة منذ اليونان القديمة.

لكن مرة أخرىٰ الدرس الأول لا يتم استيعابه: أنكم ما أوتيتم من العلم إلا قليلًا! كيف تدعون كذبًا أنكم علمتم كل شيء عن العيون والأعضاء للدرجة التي تنتقدون فيها الله علىٰ خلقه؟ ربما يخرج بعض أطباء العيون عن شعورهم عندما يستمعون إلىٰ هرطقة التصميم المعيب للأعين وأنها جاءت بتطور عشوائي -لكن هذا حادث فعلًا وكثير من الملحدين يتحججون بها. العين البشرية التي هناك آلاف الأبحاث عن مدىٰ عبقرية تصميمها وملاءمتها من حيث الموضع والشكل والتركيب للإنسان تصبح معيبة عند الملحدين فيقولون في تعال: لماذا لا تكون أفضل؟!

ونفس ما يقال عن العيون يقال عن العصب الإرتجاعي الحنجري RLN والذي اتخذه التطوريون مؤخرًا دليلًا لما أطلقوا عليه (التصميم الضعيف) وقالوا بأنه لا فائدة من تصميمه بهذا الشكل وطوله الزائد عبثي

دون تفسير تطوري. ورد عليهم كلامهم هذا الدكتور Jerry Bergman الأستاذ المساعد بكلية الطب في أوهايو والحاصل علىٰ درجة الدكتوراة؛ فكان مما قاله في نهاية رده:

«هناك مؤشرات أن هذا التصميم يخدم في صقل وظائف الحنجرة، ويقوم العصب بخدمة أعضاء أخرىٰ بعدما يتفرع من العصب الحائر في طريقه للحنجرة، وبهذا التصميم يقدم دعمًا احتياطيًا عصبيًا في حالة حدوث إعطاب بعصب آخر، كما أنه لا يوجد دليل أن هذا التصميم له مضار من أي نوع»(١٧)!

أما من يحاول الترقيع والتبرير من التطوريين العرب يتحدث بصورة لا تخرج عن السياق الإيماني بالتطور والإيمان بنجاح العلم في التعرف علىٰ الكثير وبالتالي شمولية وقدسية العلم.

مرة أخرىٰ. درس Wiedersheim سيتكرر. سيقولون يومًا: بالفعل هذه الأعضاء لها أهمية. بالفعل العين البشرية لها مميزات أخرىٰ استلزم خلقها علىٰ هذه الصورة وبتلك الإمكانات. لكنهم غالبًا وقتها لن يقوموا بهجر الفكرة الأصلية. سيقومون بوضع قائمة بأعضاء (أثرية) أخرىٰ ويعيبون أعضاء أخرىٰ غير العين البشرية!

هكذا خرجت من قائمة الأعضاء الأثرية أشياء كالزائدة الدودية لكنه بعضهم وضع العُصعُص (عظم أسفل العمود الفقري) وحلمات الثدي في الرجال وقالوا عن الأول أنه بقايا تطورية من ذيل السلف القردي وأن الثانية. لحظة. لا تفسير معقول للثانية وجدت وجهًا لنقله!!

أما العصعص فمن أهل العلم من يؤكد أن له وظائف هامة جدًا وهو النهاية الحتمية للعمود الفقري ولا علاقة له بالذيل كما أنه يدعم هيكل العظام والعضلات وامتصاص الصدمات ووظائف متعلقة بالاختلاف بين الجنسين الذكر والأنثىٰ[١٨]، إذن فهو ليس (عضوًا أثريًا) لا وظيفة له كما يدعون، بل له وظيفة لكنها لا تدعم (نظريتهم) فيلجأون لتهميشها أو التقليل من أهميتها؛ فقط لإثبات أنها (أثرية) لسلفنا القرد الذي كان يملك ذيلًا للقفز بين الأشجار ثم مع الوقت لم يجد له فائدة فضمر وتحول إلىٰ (العصعص)! لماذا لا فائدة؟ إن امتلاك قدرة كهذه التي يتيحها الذيل أمر عظيم! فلماذا يا أجداد التطوريين من القردة تخليتم عن هذه الميزة؟! لا ندري! مناقشة ثقيلة الظل لفرضيات سخيفة!

وحلمات الرجال أمر أكثر تعقيدًا؛ فما هو تفسيرها المعقول في إطار التطور؟ هل كان الذكر يقوم بالإرضاع مثلًا في القرود الأولىٰ ثم رفض ذلك فضمرت في الرجل المعاصر؟ أم أن الذكر هو كائن متطور عن الأنثىٰ ذات الأثداء أصلًا فضمر ثدياه مع الوقت؟

لكن الحقيقة أن كل هذه الخرافة قد نشأت أصلًا من فكرة خاطئة وهي أن حلمات الرجال (لا فائدة لها) وهي مجرد أثر! لماذا؟ لأن وظائفها لازالت غامضة وحتىٰ ما تم اكتشافه منها (كدورها في التنشيط الجنسي وبعض الأمور العصبية والحسية الأخرىٰ)[١٩] لا يعتبرونه أمرًا هامًا؛ فقط لأنه لا يدعم رأيهم التطوري. حتىٰ لو كان تفسيرهم هذا لا عقلاني علىٰ الإطلاق!

نفس الأمر يتم تعميمه علىٰ كافة الكائنات، كما تحدثنا سابقًا عن سيناريو تطور الحوت من حيوان الإندوهيوس شبيه الفأر، وسبب ذلك السرد أن الحوت عنده عضو يشبه اليد في مكان الزعانف المحركة. تقسيم العظام يعطي شكل اليد. إذن فالتفسير العلمي المريح مهما غابت عنه المعقولية هو أن هذا عضو أثري من سلف سابق لابد من البحث عنه حتىٰ إيجاده!

لا مكان إذن لادعاء الجهل من وظيفة هذا العضو وخلق الله له علىٰ هذا الشكل، لابد من تفسير براق يؤكد شمولية العلوم الأحيائية، وهل هناك بريق أكبر من ادعاء أن كل ما لا نعرف وظيفته هو بالضرورة عضو أثري ناتج عن التطور من سلف آخر؟ إن الإشكالية تكون قد حلت بهذا الشكل. صحيح أن تقدم الزمن والعلم يظهر أهمية تلك الأعضاء لكن المبدأ لا يعيدون النظر فيه لأنه غير قابل للنقاش من جانب التطوريين!

ونفس مبدأ الأعضاء الأثرية هو مبدأ وجود عيوب في التصميم البشري والتي يستخدمها الدراونة الملاحدة لضرب نظرية التصميم الذكي؛ فكونهم لا يعرفون كافة فوائد كل عضو علىٰ حدة وتكامله الوظيفي لهذا الكائن لم يمنعهم من ادعاء أن هذا جاء عن أثر تطوري سابق لكنه يثبت عدم وجود إله لأن من صنع هذه الأعضاء الأثرية وغيرها بهذا الشكل المعيب لا يمكن أن يكون خالقًا. إنما هي الطبيعة القائدة!

والفريقان بإيمانهما بالتطور يؤيدان مبدأ الأعضاء الأثرية ويستخدمانه؛ فأتباع الداروينية المتأسلمة يرفضون أي تفسير لهذه الأعضاء إلا التطور ويردون بهذا علىٰ من يؤمن بخلق الكائنات بالسؤال الآتي (ما فائدتها إن لم تكن أثرية عن تطور سابق؟) وهم لا يقبلون التفسيرات المختلفة لأعضاء الكائنات وبالتأكيد يهاجمون من يعرض احتمالية (جهلهم) بفوائدها. لكنهم بهذا يقعون في أزمة أمام الدراونة الملحدين الذي يستخدمون نفس مبدأهم فيخبرونهم بمكر: (تقولون بوجود مصمم ذكي فلماذا صنع المصمم الذكي أعضاءنا معيبة ولماذا لم يمح الأعضاء الأثرية من الوجود مادامت زائدة عن الحاجة؟!) ولهم كل الحق هذه المرة طبعًا! فما دمت قد رفضت أن تظهر جهلك بالأمر أو قبول أي تفسير يظهر أنه لا يوجد شيء اسمه عضو أثري وأن الله القائل ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ لم يخلق شيئًا بلا فائدة فتحمَّل سؤالهم المنطقي بنفس حججك لأنهم يملكون نفس مبادئك المنطقية العقلانية!

والفريقان علىٰ حالهما حتىٰ الآن. ولا يظهر علىٰ أي منهما وعي لمدىٰ تطابق الأصول العقلانية التي انطلق كل منهما لنقد الآخر أو نقد الخلقويين!

وعند ظهور الأزمة والارتباك بصورة زائدة يتم اللجوء للدليل الحفري. لأصل المشكلة الرئيس. الحفريات ودلالتها. وهي بقايا الكائنات القديمة في الصخور والتربة.

من هنا سنترك الداروينية الملحدة جانبًا ونتوجه إلىٰ الداروينية

المتأسلمة فقط لنعرض تفسيراتها ومناقشتها . فمعتنقوها شديدو التعصب لها ضد المؤمنين بخلق الله المباشر للكائنات. بالتالي فمنذ الآن سنستخدم القرآن والسنة كأرضية مشتركة بيننا وبينهم. فبينما الملحد لا يؤمن بالمثلث وبالتالي لا يؤمن بالوحي. هؤلاء يؤمنون. لذا سنحدثهم بالوحي وبالعلم والمعقولية المُهيمن عليهما به قدر الإمكان.



الفصل الرابع

تهافت تنظيري

من أغرب الملاحظات في كتابات الداروينميون هو دوام الشكوىٰ من تحيُّز كتابات وتفسيرات الداروينية الملحدة؛ لكنها برغم ذلك لا تنفك تسخر وتقلل من قيمة أطروحات من يؤمنون بنظريات الخلق المباشر!

فمثلًا في كتاب (كيف بدأ الخلق) يؤكد كاتبه الداروينمي كل مرة علىٰ التحيُّز المؤسف فيقول (هناك قدر غير قليل من التحيز والنظرة الذاتية يتربص لنا في جميع تصوراتنا[٢٠] ثم بعد ذلك كأنه يثبت عمليًا هذا التحيز المسبق يقول أن «رفض الخلقويين لمفهوم التطور بناء علىٰ تفنيد الأدلة السابقة (الحفريات) لا لزوم له ولا دلالة لنتائجه؛ فقد جاء علم البيولوجيا الجزيئية بالأدلة الأقوىٰ والأبقىٰ والتي لا تدحض»!

الغريب أن كافة الأدلة التي يقولها لا تدحض الخلق المباشر ولا تثبت التطور بهذا (اليقين الجازم) الذي يدعيه؛ فتشابه تركيب الجينات وآلية عملها يعني أن الخالق واحد ولا يعني بالضرورة أن الأصل واحد كما يصور. ومن الذين يؤمنون بالخلق المباشر الخاص

علماء بيولوجيا أكثر تخصصًا منه شخصيًا وهم يخالفونه في يقينه الجازم هذا. وهو لا ينفك يؤكد أن الأمر لا شك أنه محسوم تمامًا ومع ذلك يخبرنا أنه «لا شك أن علم حفريات الإنسان علم حقيقي منضبط، لكن تنقصه المادة العلمية»؟!**[٢١] علم منضبط تنقصه المادة العلمية!! ثم يصل العجب إلىٰ قمته عندما يقول عن هذه الأمور (المحسومة تمامًا) والتي (لا تدحض) من العلم أنه قد** «احتارت حفريات الإنسان القليلة بين التطوريين والخلقويين، ما بين إثبات التطور ونفيه، لذلك فكل عظمة صغيرة تكتشف هنا أو هناك يمكن أن تغير من تفاصيل سيناريو التطور»!**[٢٢] فأي انضباط وأي حسم وقطعة عظم جديدة تكتشف يمكنها أن تقلب العلم رأسًا علىٰ عقب؟ هذا شبيه بحفرية أرنب العصر البريكمبري المفترضة[٢٣] التي أكد أحد العلماء أنها لو ظهرت يومًا لانهارت نظرية التطور من خلية بكتيرية واحدة تمامًا. بمعنىٰ آخر. لو ظهرت حفرية واحدة لأحد الثدييات أو الكائنات المتطورة قدر عمرها بما قبل العصر الكمبري قبل (الانفجار الإحيائي الكبير) ستنهار مئات النظريات التي سادت الأرض خلال أكثر من قرن، ثم بعد هذا يدعي أحدهم الحسم النهائي للقضية والجزم النهائي بالتطور!**

والأغرب أنه هو نفسه ينقض أسطورة حفرية إنسان جاوة الذي هو ليس بإنسان، والذي تم رسم وجهه وصورته من «عظمة فخذ وثلاث أسنان وجزء من عظمة الجمجمة» **مع** «قدر كبير من التخيل بطبيعة الحال»**[٢٤] وهو تخيل انطلق متحيزًا من البداية لفكرة أن هذه العظام**

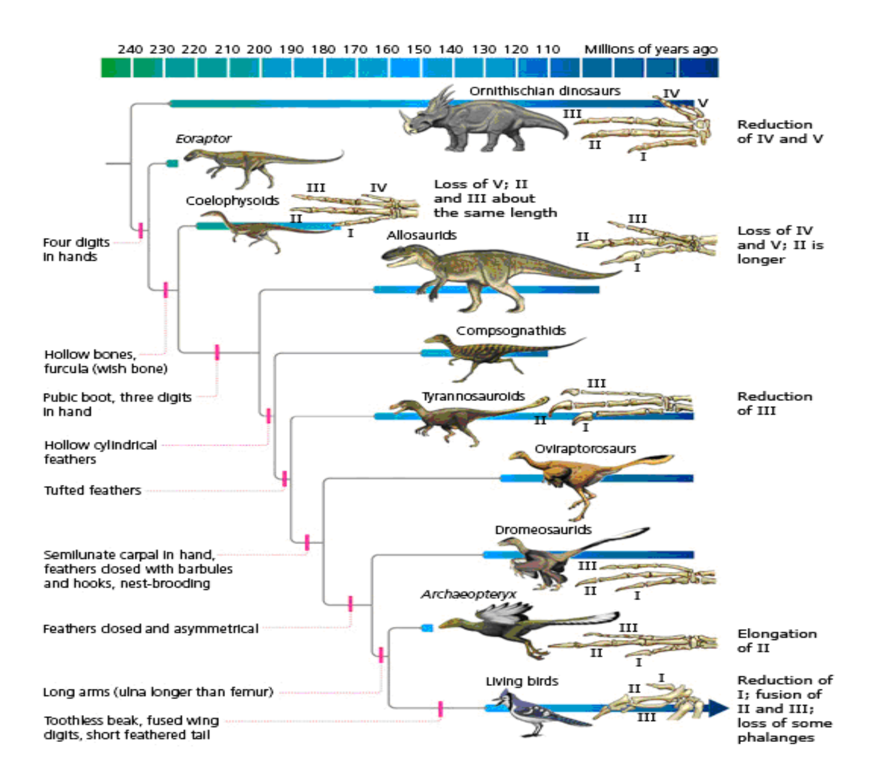
لحلقة وسيطة بين الإنسان والقرد فتصور الوجه بهذا الشكل! ثم بعد هذا النقض يستدرك مسرعًا «إن ذلك لا يعني هذا أننا نجاري الخلقويين في نبذهم لحفريات أشباه الإنسان فقد ظهرت أدلة حفرية أخرىٰ تجزم بحدوث التطور»[٢٥] **مرة أخرىٰ الجزم القاطع والاستعلاء علىٰ نظريات من يؤمنون بالخلق المباشر من العلماء! هو نفسه يقول بعد هذا الجزم يعترف بوجود** «جماجم لهذه الكائنات تتدرج في سعتها وبالتالي حجم المخ الذي يشغلها من **٤٥٠** سم والتي تساوي مخ حجم الشيمبانزي . . حتىٰ تصل إلىٰ جمجمتنا التي تحوي مخًا حجمه **١٣٥٠** سم تقريبًا»[٢٦].

هل هذا هو الدليل (الجازم) الذي (لا شك ولا مرية فيه) علىٰ تطور الإنسان من قرد؟! هل وجود جماجم مختلفة الأحجام في الحفريات يعني أنها ذات أصل واحد؟ ولماذا الحفريات إذن؟ ألا توجد اختلافات في الحجم بين جماجم القردة والإنسان والشيمبانزي والغوريلا حتىٰ الآن؟ هل يعتبر هذا دليلًا علىٰ اختلاف النوع أم علىٰ أنه نوع واحد؟!

لماذا لا تكون تلك الحفريات العديدة هي مجرد قرود كانت علىٰ ظهر الأرض وانقرضت بعض أنواعها وبقيت أخرىٰ؟ لماذا محاولة الربط دائمًا بين البشر وبينها برغم الاعتراف أن وجهها يشبه القرد لا يشبه البشر؟

ثم يتحيز في إعطاء حفرية طائر الأركيوبتيركس تفسيرات ضخمة كأن الأمر محسوم، وهو أنه هو الحلقة الوسيطة بين الطيور والزواحف،

ثم يلجأ لتسفيه رأي من يرفضون هذا الحديث فيقول «لجأ الخلقويون إلىٰ الأسلوب الذي استخدموه كلما تم العثور علىٰ حلقة وسطىٰ، لقد اعتبروا الأركيوبتيركس نوعًا منفصلًا من الطيور المنقرضة»[٢٧]!



شكل- ٩

سلاسل الوهم: من ديناصور إلىٰ طائر. الأركيوبتركس ومزيد من الخيال!

لقد سفه د.عمرو شريف رأي مخالفيه وادعىٰ أن حجتهم هذه (أسلوب يتبعونه) في الإنكار لإثبات دوجمائيتهم المزعومة بينما هؤلاء المتخصصون لهم وجهة نظر علمية كذلك لكنه لا يقبلها كرجل دارويني مخلص لا يقبل المساس بنظرياته!

وأصول أفكاره مضطربة؛ فبينما يدعي اليقين والجزم والحسم علىٰ التطور عشرات المرات، يرد علىٰ حجة المؤمنين بالخلق المباشر التي تقول أن التطور لا يخرج عن كونه نظرية يحكم عليها بالإثبات أوالنفي بالآتي «طبيعة علم البيولوجيا تختلف عن العلوم التجريبية والرياضية وأنها تعتمد علىٰ طرح النظريات وليس علىٰ سوق البراهين التجريبية والرياضية»[٢٨] **فهل قال من ترد عليهم غير ذلك؟!! لقد قالوا أن هذا الكلام (مجرد نظريات) وأنت قلت لهم أن علم البيولوجيا معتمد علىٰ النظريات لا علىٰ البراهين التجريبية - وهذا الكلام الأخير فيه خطأ بشع يعلمه أي دارس للبيولوجيا؛ فليست كل علوم البيولوجيا نظريات بلا براهين تجريبية كما يدعي الدكتور للتهرب من اعتراضهم المنطقي!**

ويرد علىٰ اعتراضهم المنطقي بأن التشابه الموجود هو لأن الخالق قد استخدم نفس النمط في الخلق بإجابة متهربة لا منطقية فيها فيقول «لا شك أننا لو عولنا علىٰ تفسير الظواهر العلمية علىٰ مشيئة الله لانتهىٰ العلم، كل علم»[٢٩]**! هذه هي الإجابة؟! تخيل أن هذا يصدر من الدكتور الذي يؤمن بأن التطور حدث بمشيئة الله! د.عمرو شريف يرد**

علىٰ المؤمنين بالخلق المباشر -بإجابة رجل مادي. ثم يرد علىٰ الماديين -بإجابة المؤمنين!

وينتصر للتطوريين أمام الخلقويين في مسألة أخرىٰ وهي أن حدوث التطور البيولوجي يتطلب أن نرىٰ الكائنات تتحول تحت أعيننا، وبوسع أي فرد أن يدرك أن هذا لا يحدث؛ فيقول «التطور الطبيعي يسير ببطء شديد بحيث لا يمكن رؤيته بالعين المجردة ولكنه يرىٰ في طبقة الحفريات»[٣٠] هذه الحفريات التي قال عنها قبلًا أنها لا تحسم شيئًا وأنها علم ينقصه المادة العلمية! وهو يقول في مكان آخر أنه قد «وقعت المفاجأة الكبرىٰ عندما ثبت لعلماء الحفريات أن انفجارًا أحيائيًا كبيرًا قد حدث في العصر الكمبري وأن جميع الكائنات الحيوانية ظهرت فجأة في هذا العصر -منذ ٤٥٠ مليون سنة- وبدلًا من أن تشبه شجرة الحياة العظمىٰ لدارون هرمًا مقلوبًا يقف علىٰ رأسه -وهو الخلية الحية الأولىٰ- أصبح الوضع الحالي هرمًا مستقرًا علىٰ قاعدة عريضة جدًا تشكلها جميع الكائنات الحيوانية التي ظهرت في العصر الكمبري»[٣١] وهذا متواتر ومعروف الآن، لكن هل هذا يثبت وجهة نظر من يقولون بالخلق المباشر من الله للكائنات أم وجهة نظر من يؤمنون أنها ذات أصل مشترك راحت تتطور عبر مئات الملايين من السنين؟ إن هذا الكلام يثبت صحة نظرهم ولا معنىٰ لكلمة (انفجار) الغامضة هنا. هم قد أطلقوا عليه انفجارًا لأنه غير مفهوم، كيف فجأة ظهرت القردة العليا والأسماك والثدييات المختلفة والطيور بغير خالق؟ إن كانت ذات أصل

مشترك فلابد أن أجد كل بضع ملايين من السنين حفرية لكائن تطور عن سلفه وهذا لا يحدث ويعترف هو نفسه بهذا «بالرغم من ثراء سجل الحفريات الآن -أكثر من مائتي ألف نوع- فإن الصورة التي يُظهرها ليست بالشجرة التي تتفرع تدريجيًا من الأدني إلىٰ الأعلىٰ إلىٰ الأكثر تعقيدًا وتحتاج لملئ بعض الفراغات الانتقالية، ولكن يظهر سجل الحفريات علىٰ هيئة مجموعة من الكائنات الحية غير المترابطة وتفصلها مساحة خاوية واسعة، بل إن الحفريات الجديدة أظهرت فراغات أكثر تحتاج إلىٰ ملئ»(٣٢)**!**

هذا الكلام الذي يقوله متناثرًا يُثبت أكثر فأكثر نظريات البيولوجيين القائلين بالخلق الخاص المباشر وأن الله لم يجعل أصلًا مشتركًا للكائنات، ويبدو أنه يدرك هذا الاضطراب فيتهرب من علم الحفريات ما وسعه التهرب قائلًا أن الأمر الآن بين يدي علماء البيولوجيا الجزيئية وأن الحفريات لا قيمة لها حاليًا! لقد فاز الخلقويون بمعركة الحفريات منطقيًا وربما علم هذا بعقله الباطن فتهرب إلىٰ علوم البيولوجيا الجزيئية. والغريب أنه في إثباته لأصل الإنسان المشترك مع القرد يظل معتمدًا علىٰ الحفريات! يأخذ بعض ما يوافقه ثم يرد البعض الآخر!

المعلومة المشهورة الآن أن الكائنات المعقدة المعروفة ظهرت في العصر الكمبري فجأة. هم يسمونه انفجارًا لأن الأمر يشبه القنبلة فعلًا ويهدم نظريات التطور. من المفترض أن تتطور الكائنات كل حزمة

ملايين من السنين. مع ذلك ظلت الأرض محتلة بكائنات وحيدة الخلية وهي البكتيريا. لم تتطور عبر عشرات الملايين من السنين. يحاول التطوريون التهرب من هذا المأزق بالقول أن جو الأرض كان لابد أن يبلغ الأوكسجين فيه ٢١ ٪ تمامًا! وهذه حجة ضعيفة لأن المفترض أن الكائنات التي طورت نفسها للتكيف مع أي صعوبات لم يكن يفرق معها وجود الأوكسجين بنسبة ١٧٪ أو تنتظر حتىٰ ٢١٪ بالتحديد!

إن المثبت أن أغلب الكائنات ظهرت فجأة -علىٰ سبيل المثال- بعيون مركبة وليست بسيطة. بداية من العصر الكمبري. فكيف حدث هذا الظهور والمفترض أن التحول من بكتيريا إلىٰ كائن له عين مركبة أخذ ملايين السنوات وله آلاف الأسلاف المتطورة في العصر البريكمبري، وهذا غير حادث، ناهيك أن من درس تصميم العيون المركبة يعرف عجز العقل عن تصور إمكان تحول خلية بكتيرية إلىٰ عين مركبة أصلًا فما بالك إلىٰ كائن كامل أصبحت العيون له ضرورة فتطورت لهذا الغرض؟!

لقد توقع دارون في كتابه أصل الأنواع أن نظريته ستصاب بضربة قاتلة إن حدث الآتي «إن أمكن البرهنة علىٰ أن هناك عضو مركب/ معقد تواجد دون أن تكون هناك احتمالية لتشكله بواسطة تعديلات عديدة متعاقبة وطفيفة؛ فإن نظريتي حتمًا ستنهار»[٣٣]. وهذا حدث فعلًا لكن التطوريون تهربوا بتسمية تلك الضربة القاتلة باسم آخر وهو (الانفجار الإحيائي)!

ويذكر Gerald Schroeder العالم اليهودي حادثة -إن ثبتت- فستكون هامة جدًا إن فهمنا مسارها وما حدث فيها في التعرف علىٰ الكثير مما نتكلم فيه:

«إن الحقيقة أن الانفجار الإحيائي اكتشف قبل الإعلان عنه بكثير. ففي عام **١٩٠٩** قام تشارلز والكوت أثناء بحثه عن حفريات في جبال كندا الصخرية، اكتشف طبقات من الطفل بالقرب من ممر برجس. غنية بما كان يبحث عنه. حفريات من العصر المعروف باسم الكمبري.

وخلال الأربع سنوات التالية جمع والكوت من ٦٠ إلىٰ ٨٠ ألف حفرية من العصر الكمبري وحده. هذه الحفريات احتوت ممثلين عن كل شعبة معاصرة حاليًا ما عدا واحدة فقط. قام والكوت بتدوين مكتشفاته بدقة في دفتره. لا شعبة جديدة أبدًا تطورت بعد الانفجار الإحيائي الكمبري. كان من الممكن لهذه الحفريات أن تغير نظرية التطور تمامًا من شجرة الحياة إلىٰ غابة الحياة. وقد فعلت. لكن ليس في عام ١٩٠٩.

لقد علم والكوت أنه اكتشف شيئًا مهمًا للغاية. لهذا قام بجمع العدد الهائل من العينات لكنه فقط لم يستطع أن يصدق أن التطور حدث بهذه الصورة الانفجارية للكائنات! حدث تلقائيًا باستخدام التعبير العلمي الأمريكي. لقد كان هذا مضادًا تمامًا لنظرية داروين كما عرف هو وفريقه. لذا قام والكوت بإعادة دفن حفرياته كلها ال ٦٠ ألف لكن في أدراج معمله هذه المرة! فوالكوت كان رئيسًا لمعهد سميثسونيان في

العاصمة الأمريكية واشنطن، أكبر مجموعة من المتاحف في العالم كله! هكذا ظل الأمر حتىٰ عام ١٩٨٥ عندما أعيد اكتشافه مرة أخرىٰ في أدراج مؤسسة سميثسونيان. لو كان والكوت يملك الرغبة لوظف فريقًا من الخريجين للعمل علىٰ هذه الحفريات . . ؛ لكنه اختار ألا يضرب قارب التطور بهذه الصخرة. اليوم الحفريات الممثلة للكائنات المعاصرة والمنتسبة للعصر الكمبري اكتشفت في الصين وأفريقيا والجزر البريطانية والسويد وجرينلاند. لقد كان الانفجار الإحيائي عالميًا. لكن قبل أن يصبح ملائمًا مناقشة الطبيعة الخارقة للانفجار الإحيائي. المعلومات تم -ببساطة- عدم تدوينها أساسًا! هذا كان مثالًا كلاسيكيًا للنشاز الإدراكي. مثالًا لما دفعنا جميعًا ثمنًا باهظًا له»)(٣٤).

هذا كان الحديث عن الحفريات التي لا تخدم أبدًا نظريات التطور بل تخدم فقط نظرية الخلق المباشر. فماذا عن المجال الآخر الذي يحدث التهرب إليه حاليًا بسبب شدة تعقيده وغموضه؟

إنه علم الجينات. البيولوجيا الجزيئية. يدعي التطوريون أن فيه الحسم.

لكن هل حقًا كما يدعي هؤلاء عند ال(جين) الخبر اليقين؟ هل يجيء منه الحسم؟



الفصل الخامس

عند الـ (جين) الخبر اليقين!

يطلق الدكتور عمرو شريف علىٰ فصل الاحتكام إلىٰ علم الجينات «قراءة الجينوم. وحكم لا يقبل النقد»[٣٥] **هذا هو عنوان الفصل! ويقصد بالحكم: الحكم علىٰ سلف الإنسان بأنه قرد، وهذا إن فهمناه مقيدًا ولم نجعله مطلقًا!**

ولا أعلم أكان الدكتور متعمدًا استعمال لفظ: نقد بدلًا من نقض، علىٰ الفارق الكبير بينهما -مما يوحي بأن كلمة الجينوم لا تحتمل حتىٰ مجرد المس بانتقاد فما بالك بنقض كلمتها في تلك القضية!

لكن لنركز نقدنا هنا لهذا (الحكم الذي لا يقبل النقد!) علىٰ أمور:

الأول: إثبات أن نسب التطابق لا تمثل هذه الأهمية البالغة التي يحاول الدكتور ومعه التطوريون التعويل عليها، بل إنه هو نفسه يقول «أن الفوارق الأساسية بين الكائنات الحية لا تكمن في الجينات في المقام الأول، بقدر رجوعها إلىٰ الدنا المسئول عن تشغيل وإبطال هذه الجينات»[٣٦]. **وسنؤكد إبطال القول بالإجماع علىٰ كون الشيمبانزي والإنسان نسبة التطابق الكلية بينهما ١٠٠٪ وإبطال حجية هذا الدليل:**

دليل التشابه الجيني الذي حدثت مغالطة باستخدامه لإثبات تشابه الهوية لا مجرد تماثل حادث في حيوانات أخرىٰ!

وسنعمل بالترتيب علىٰ تفنيد الحجج الواردة في استدلال د. عمرو شريف والتي استخدمها لإثبات السلف المشترك وهي: حجة القرابة بسبب تشابه أو تماثل عدد الكروموسومات -حجة التشابه الجيني- حجة الكروموسوم الثاني.

الثاني: إبطال المقدمة الكلية التي بدأ بها الفصل وتحرك منها بلا أدنىٰ توقف ولا مراجعة: أن الجينوم مكشوف الأسرار فنعلم عنه ما يجعلنا نرفض مجرد نقد حكمه الذي فهمناه منه، وقد استدل الدكتور عمرو شريف علىٰ هذا باستهلال الفصل ذاكرًا قصة رسم خريطة الجينوم.

❁ ❁ ❁

١) حجة القرابة بسبب عدد الكروموسومات:

استخدم د. عمرو شريف هذه الحجة[٣٧] لإثبات قرابة الإنسان من القردة، وانطلق في تبرير كون الشيمبانزي له ٢٣ زوجًا من الكروموسومات بينما الإنسان عنده ٢٢ فقط بحجة الكروموسوم البشري الثاني. لكن الدكتور عمرو صادر بمقدمة مطوية مفادها أن تعداد الكروموسومات في الجين مما يؤبه له في تلك القضية، بل تجده يطلق علىٰ هذا الاستدلال «السلف المشترك حقيقة بيولوجية»[٣٨] ويستعمل عبارة مثل «الدليل الدامغ»[٣٩] في معرض شرحه لهذا الدليل!

لكن كان علىٰ الدكتور أن يعرض كذلك كائنات تحمل نفس عدد كروموسومات الإنسان مثل: الفأر الأسود، والخفاش الكبير منحني الجناح، والقندس الجبلي وخفاش التوكو توكو والحمار الوحشي جريفس زيبرا!

وكان عليه أن يعرض كائنات تحمل نفس عدد كروموسومات الشيمبانزي مثل: أرنب جاكرابيت، وفأر بيروميسكوس، والقندس الأوراسي، وثمرة البطاطا وثمرة الطباق!!

فما الدليل الذي يمثله التشابه أو التساوي في عدد الكروموسومات من جهة دعم مزاعم إثبات القرابة الجينية؟ اللهم إن كان المُستدلُ ينطلق ابتداءً من مقدمة أن الإنسان والشيمبانزي أقارب لهما سلف مشترك -إن الاستدلال هنا دائري:

السلف المشترك بين الإنسان والشيمبانزي حقيقة لا تدحض - الإنسان والشيمبانزي لهما عدد متشابه من الكروموسومات: إذن الإنسان والشيمبانزي أقارب ولهما سلف مشترك!

والمقدمة الصغرىٰ هي ما لا يمكن التسليم به: لأن استقراء تعداد كروموسومات الكثير من الكائنات التي تتشابه أو تتماثل في عدد الكروموسومات -لم يكن يرادف تلك القرابة المزعومة؛ حتىٰ لو سلمنا تنازلًا بالمقدمة الكبرىٰ وتغاضينا عن المغالطة في صورة القياس!

لكن د.عمرو لا يكتفي بذلك في استدلاله بل يستخدم مغالطة

رجل القش حين يهاجم أطروحة عجيبة ينسبها للخلقويين؛ فيقول تفسيرًا لتشابه جينات الفأر والإنسان: «ليس هناك تفسير لهذا التطابق إلا أن تكون هذه العناصر قد زُرعت وأن يكون ما أصابها من تشويه قد تم في السلف المشترك لكل من الإنسان والفأر ثم انتقل إلىٰ كل منهما. هذا بالطبع إذا استبعدنا ما يقوله الكثير من الخلقويين من أن الخالق يتعمد خداعنا ليوهمنا بحدوث التطور ليختبر إيماننا!!»[٤٠] **ولا أملك غير شهادتي أني ما قرأت بحثًا محترمًا لمن يسميهم بالخلقويينلا**

يستخدم تلك الحجة، ولا أُكذِّب د.عمرو لكني ألومه في إيراد حجة ضعيفة يمكن أن يكون قد سمعها من أحد هؤلاء فعممها تعميمًا متسرعًا ثم عرضها كنظرية أصيلة عند المؤمنين بالخلق المباشر فصارت رجل قش يستهزء به!

فالخلاصة هنا: أن تعداد الكروموسومات ليس مما يستدل به علىٰ القرابة والسلف المشترك؛ فضلًا عن أن يقال عنها دليلًا دامغًا!

❁ ❁ ❁

٢) حجة التشابه الجيني:

إن المرء يتعجب بشدة من د.عمرو عندما يقول الآتي: قد ثبت أن هناك تطابقًا بنسبة **١٠٠%** بين أجزاء دنا الإنسان التي تشكل الجينات (العاملة والخاملة) وبين جينات الشمبانزي. وتصل النسبة إلىٰ **٩٩%** مع جينات الكلاب والفئران و**٧٥%** مع الدجاج و**٦٠%** مع ذبابة

الفاكهة[٤١] و«إذا قارنا جينوم الإنسان مع الفأر وجدنا أن حجم الجينوم في كلا الكائنين متساوٍ تقريبًا! كذلك تتشابه الجينات (العاملة والخاملة) في كل منهما بمقدار **٩٩%**»[٤٢] **بل يقول صراحةً** «الفوارق الأساسية بين الكائنات الحية لا تكمن في الجينات في المقام الأول»[٤٣]، **ثم يكمل بعد تلك النتيجة الصريحة بمحاولة إنقاذ عن طريق استخدام فكرة التشابه في الدنا المُهمل Junk DNA وإعطائه دورًا كبيرًا وهو (القيادة)! الدنا غير المُشفِّر Noncoding DNA والذي كان يعرف قبلًا بالدنا المهل -هو نفسه أكبر دليل علىٰ التبدلات والتحولات الطارئة في مفاهيم رئيسية بداخل علم الأحياء كما سنعرض في النقاش الأخير: لكن بدلًا من ذلك وبدلًا من لزوم ما ثبت وقاله د.عمرو شريف بنقض حجية التشابه الجيني التي كانت مستخدمة بصورة موسعة جدًا حتىٰ عقد مضىٰ باعتبار تفاهة الدنا المُهمل -يقفز الدكتور فوق هذا بإعطاء الحمض النووي غير المُشفِّر دورًا وتسمية مشحونة (قائد أوركسترا الجينات!) ربما ليغطي علىٰ عيب الحجية التي اعترف بها!**

هناك بعض حقائق نحب أن نوردها ليكون القارئ علىٰ علم بالصورة الكاملة للموقف، وليحكم بنفسه عن حجية (التشابه الجيني) تلك التي يوردها د.عمرو شريف كدليل دامغ علىٰ التطور:

*** في التحقيق الشهير جدًا والمنشور عام ٢٠٠٥ بمجلة Nature الأمريكية، والذي جاء منطلقًا من كون التطور حقيقة ودعمًا له، وردت البيانات التالية عن الاختلافات بين جينوم الإنسان وجينوم الشمبانزي:**

«هناك ٣٥ مليون اختلاف علىٰ مستوىٰ النيوكلوتيدات - هناك ٥ مليون حادثة إدخال/ حذف، وإعادة ترتيب كروموسومية متنوعة»[٤٤] **لاحظ أن الدراسة انطلقت من تحيُّز مبدأي واضح لفكرة السلف المشترك فهم فقط يرصدون** «الاختلاف الجينية التي تجمعت منذ انفصال الإنسان والشيمبانزي من سلفنا المشترك»[٤٥]. **لقد ثبتوا المقدمات كلها كحقيقة وانطلقوا لرصد آثار هذه المقدمات. وما يلزمنا من تلك الدراسة هو إثبات وجود اختلافات داخلية متعددة علىٰ المستوىٰ الجيني بل علىٰ مستوىٰ النيوكلوتيدات الداخلية بين النوعين. ليس مجرد اختلاف في مفضلات (قائد الأوركسترا)!**

*** تبلغ نسبة التشابه الجيني بين الفأر والإنسان[٤٦] حوالي ٩٧,٥٪ وينقل د.عمرو أنها (٩٩٪) بما فيها الجينات العاملة والخاملة كما نقلنا سابقًا! وكذلك يتشابه جينوم حيوان الكنجارو مع جينوم الإنسان[٤٧] إلىٰ الدرجة التي دفعت بعض العلماء للتفكير في أن الكنجارو والإنسان آتيان من سلف مشترك هما أيضًا!**

*** برغم أن حجم الحمض النووي في الدجاج أقل منه في الإنسان[٤٨]، إلا أنهما يتشاركان في نفس تعداد الجينات تقريبًا، ويتشابهان في [٤٩]٪ منها!**

*** تحدثنا عن التشابه الجيني في كل ما سبق باعتباره حقيقة هو ١٠٠٪ كما قال د.عمرو شريف. لكن العالم التطوري بروفيسور د.تود بروس Todd Preuss الأستاذ في الباثولوجي والطب المعملي**

والباحث العلمي المعروف والحاصل علىٰ الدكتوراة في الأنثروبولوجيا الأحيائية، يقول غير ذلك!

«لقد صار واضحًا الآن أن الاختلافات الجينية بين الإنسان والشيمبانزي أضخم بكثير جدًا من الفكرة السابقة. إن الجينوم الخاص بهما ليس متطابقًا بنسبة ٩٨% أو ٩٩%» **٦٠!**

إذن ماذا؟

يجيب د.تود في ورقة أخرىٰ قدمها بالتوقع الآتي: «إن التشابه الكلي في تسلسلات الحمض النووي DNA sequences أكثر قربًا لأن تكون نسبتها ٩٥-٩٦%[٥٠]»!

لكن حتىٰ تلك النسبة يطعن فيها د.جيفري تومكينز، الباحث العلمي المعروف والحاصل علىٰ الدكتوراة في الجينات. ففي بحث علمي منشور له خلص إلىٰ النتائج الآتية «في الكروموسومات غير الجنسية autosomes للشيمبانزي؛ فإن التسلسلات الحمضنووية المتحاذية بصورة مثالية قد أنتجت تشابهات تتراوح نسبتها من ٦٦% إلىٰ ٧٦% .. وفقط ٦٩% من كروموسوم X كان مشابهًا لكروموسوم الإنسان، بينما كان كروموسوم Y مشابهًا فقط بنسبة ٤٣%»[٥١].

لماذا كل تلك الالتباسات في التقديرات؟ لأن علم الجينات نفسه لم يصل لكلمة نهائية في كثير من القضايا كما ينغرس في عقل من يقرأ كلام د.عمرو شريف في كتابه حينما يقرأ عن (الأدلة التي لا يمكن

دحضها)! ولكن هذ الأمر سنتركه لنهاية الفصل وليس الآن.

*** تحدثنا في كل ما سبق عن التشابهات: فماذا عن الاختلاف غير المجبور بنظرية التطور والسلف المشترك؟**

سنبقىٰ مع د.تومكينز الذي يقدم مقالًا علميًا آخر عن ما يعرف بمناطق الـ lincRNA والـ vlincRNA ويخلص منه إلىٰ النتيجة التالية «هناك ما يزيد عن ٦% من الإكسونات البشرية المختصة بتشفير البروتين بهذا الحجم ليس لها نظير مماثل في الشيمبانزي»[٥٢].

وهذا يدعم نظرته الكلية التي يؤكد فيها علىٰ كون الحمض النووي للكائنات مهما تشابه -فهناك تفرد لكل واحد منها عن طريق الاختلافات الصغرىٰ. وهذا هو عين ما نقوله: إن ثبت فعلًا أن التشابه وصل لهذه النسب والأرقام التي يطرحها د.عمرو شريف!

*** يقوم د.عمرو شريف بالاستدلال بالكروموسوم الثاني وكونه ملتحمًا مما يفسر سبب نقص عدد الكروموسومات البشرية عن كروموسومات القرد.** ولا أظننا بعد الاستعراض السابق بحاجة لمزيد حديث في تفنيد الأمر. فحجة التماثل الرقمي أو التشابه الجيني فيهما إشكالات كثيرة كما سبق وعرضنا. فكيف يقال عن حجج واهية كتلك أنها أدلة (لا تدحض) و(دامغة)؟!

*** بعد الخروج من حجتي استخدام التشابه الجيني والكروموسومي.** يمضي د.عمرو في سرد سيناريو واثق جدًا لا تردد

فيه عن كيفية تطور الشيمبانزي ليصير إنسانًا! فتجده مثلًا يقول «إلىٰ جانب التغيرات في البنية وفي حجم المخ وتركيبه ووظائفه مر أسلافنا بتحولات عديدة أعانتهم علىٰ أن يتبنوا نمطًا حياتيًا جديدًا»[٥٣] **ثم يمضي في السردية اللادينية الشهيرة لتعلم الإنسان والتي تبدأ بإنسان شبه قرد بدائي لا يعلم النار ولا يأكل سوىٰ الأعشاب حتىٰ الإنسان الحالي:** «لقد أدىٰ استئناس النار منذ مليون سنة ثم الثورة الزراعية منذ **١٠٠٠٠** سنة إلىٰ التوصل إلىٰ الأطعمة الغنية بالنشا وقد صحب ذلك حدوث تنشيط للجين AMY١ المسئول عن بناء إنزيم الأميلاز الموجود باللعاب ليسمح بهضم هذه الأطعمة التي استعاض بها الإنسان عن أكل الأعشاب الغنية بالسيليلوز كما تفعل باقي الثدييات»[٥٤] **ويوضح أن جين تكبير المخ** «تم تنشيطه في الإنسان»[٥٥] **فجأة كي يصير إنسانًا!**

تأمل هذا الوثوق في رسم السرد الذي لا يتردد إلا نادرًا جدًا جدًا وفيما لا يخدم أي سياق آخر. ثم اقرأ كيف ينبه د.تود بروس الذي ذكرناه قبلًا، في مقال علمي أن «علماء الأعصاب حتىٰ الآن عاجزون عن تحديد كيف للخلايا وأجهزة الاتصال التي تكون المخ قد تم تعديلها في تطور الإنسان»[٥٦]**!**

فقط تأمل الفارق بين الوثوقية السردية الأولىٰ التي لا تضع أي صيغ تنبه لكون هذا تخمينًا لا أكثر، مقابل حقيقة حيرة العلماء في إجابة سؤال رئيسي أصلًا وهو: كيف تطور المخ وتم تعديله من القرد ليكون إنسانًا؟!

*** ما هي سردية تطور الإنسان أصلًا؟ لقد صار السرد القديم المثالي المتصوَّر قديمًا: شيمبانزي، شبه إنسان، نياندرثال، إنسان -صار كل هذا أثرًا متحفيًا! أصبح شجرة فيها كائن غامض اسمه (القرد الأعلىٰ أو الأعظم) هو السلف المشترك الذي منه جاء الإنسان والشيمبانزي والنياندرثال! لقد صاروا أبناء عمومة بعدما كانوا أسلافًا متعاقبين! وصدق ريتشارد ليكي عالم الحفريات التطوري الشهير جدًا في قوله عام ١٩٩٠:** «إذا قمت بالضغط في مسألة سلف الإنسان؛ فسأقول صراحةً بأن كل ما نملكه هو علامة استفهام ضخمة! إلىٰ اليوم لم نجد شيئًا يمكن بصدق أن يكون حلقة وسيطة للإنسان. بما فيهم لوسي .. إن ضغطت أكثر: فإنني سأقر بأنه هناك أدله أكثر لدعم التخمين القائل بالوصول المفاجئ للبشر لا بعملية التدرج التطورية»!

ما الذي صنعه علم الجينات إذن سوىٰ كسر التفسير البسيط القديم للتطور وتقديم تفسير أكثر انفساخًا وامتلاءًا بالفجوات التي تنتظر الملئ بأسلاف وسيطة؟!

❀ ❀ ❀

ثانيًا: هل علم الجينات حاكم معلوم تمامًا حكمه لا يُدحض؟

لا أجد أني في حاجة للتحدث كثيرًا في الأمر بينما لدي د. فيليب بول الكاتب والمؤلف والمحرر العلمي الشهير والحاصل علىٰ الدكتوراة والعامل في مجلة Nature **لمدة عشرين عام والذي أصدر مقالًا في**

الخامس من يونيو لعام ٢٠١٣، كانت بدايته صادمة منذ العنوان «DNA الاحتفال بالمجهول»[٥٧] **فليعذرني القارئ عندما أنقل منه، ربما يكون كافيًا للرد علىٰ نقولات د. عمرو شريف لفرانسز كولنز والذي أوهم فيها أنه بمجرد انتهاء مشروع الجينوم البشري عام ٢٠٠٣ قد انتهىٰ الأمر وصار علم الجينات بلا إشكالات أصولية!**

يقول بول في صدر المقال «برغم مرور ستون عامًا، لازال النقاش حول تعريف الجينوم نفسه في حالة جدال حاد؛ فنحن لا نعرف ماذا يفعل أغلب الـ DNA الخاص بنا، أو كيفية عمله أصلًا، أو إلىٰ أي مدىٰ يتحكم في الصفات. أو بمعنىٰ آخر، نحن لا نعرف جيدًا كيف يعمل التطور علىٰ المستوىٰ الجزيئي»[٥٨]**!!**

يسترسل بول بعد ذلك في استعراض بعض الإشكالات التي يدور في فلكها فيها والأسئلة المثارة حول السردية الكبرىٰ المعروفة عن مراحل عمل الجينوم! مثل الاحتفال بفك شفرة الجينوم البشري والارتباك الحالي أمام دراسات كثيرة تشعر بالنقص التفسيري لسيناريو عمل الجينوم (نقل إلىٰ mRNA) ثم ترميز للبروتينات. ومثل الشعور بسخافة مصطلح الدنا المهمل وتأكيدات بأنه يقوم بالتشفير هو الآخر لكننا لا نعلم الكثير. عن جهلنا بالجينوم الذي كلما ازددنا علمًا به تساقطت أسس فرضيات نظرية التطور.

الكاتب يظهر الشعور بالحيرة وبأن العالم يتغير والعلم يتغير. لذا يتحدث أن التمسك بالمفاهيم القديمة عن الجينات (قديمة بمعنىٰ ما قبل

٢٠١٣!) والسائدة حتىٰ الآن ناتج عن شعور (عاطفي) لأن العلم البيولوجي كله سيعاد كتابته! لذا كان مما قاله ساخطًا من الاعتراف بتعقُّد الوضع:

«لماذا كل هذا النفور من الاعتراف بالتعقيد؟ قد تكون العاطفة هي أحد المعوقات، إذ أن علم الأحياء معقد لدرجةٍ قد يكون من الصعب معها التخلي عن فكرة الوعد بوجود آلية أنيقة ومركزية. ففي علم الفلك مثلًا، قامت حقيقة واحدة قاسية (تسارُع نمو الكون) بإعادة كتابة الحبكة من أولها، لكن في علم التطور الجزيئي ثمة أفكار قديمة -مثل أهمية الانتقاء الطبيعي، والميل العشوائي في قيادة التغيير الجيني- تتصارع الآن مع أسئلة عن الحمض النووي الريبوزي غير المرمز، ونظرية شبكة الجينوم واللاجينية. ما زلنا لا نعرف ما هي الرواية التي علينا أن نسردها بعد»(٥٩).

أتمنىٰ أن يكفي هذا للرد علىٰ النقطة الثانية التي اعتمد فيها د.عمرو علىٰ النقل من د.فرانسز كولنز -فهاهو مقال من أحد كبار محرري واحدة من أضخم وأشهر المجلات العلمية العالمية يتحدث عن الاهتزازات الجارية في أصول العلم منبئة باحتمال حدوث زلزال قادم. فكيف يقال عن هذا العلم كحكم أنه لا يقبل النقد حتىٰ!

ولا يعني هذا الحديث إطلاقًا التسخيف من علم الجينات -بل غاية ما نطلبه هو ضبط التهويل منه فوق الحقيقة حتىٰ أوصلوه لدرجة من لا يقبل حُكمه النقد!

انضباط وهدوء التفسيرات الآتية من النتائج وتأويلات والدراسات التطورية المعتمدة عليه. بدلًا من المجازفات التي نراها واضحة في ختام عرض د.عمرو شريف للاستدلالات التي فندناها قبلًا؛ فيقول بوثوق وصرامة: «أظهرت القراءة الأولىٰ لجينوم الإنسان وجينوم غيره من الكائنات صدق مفهوم التطور ومفهوم السلف المشترك في نشأة الإنسان. وبذلك قدم علم البيولوجيا الجزئية الدليل الذي لا يُدحض في هذه القضية الشائكة»(٦٠) **!!**

وأختم هذا الفصل بنقل يصف ما ذكرته في السطور السابقة، وهو لدكتور جوناثان ويلز الحاصل علىٰ دكتوراة في البيولوجيا الجزيئية من الولايات المتحدة الأمريكية وأحد أشد أعداء تلك النظرية:

«من النادر للغاية أن يتم إطلاع المجتمع كله بما يقوم به العلماء المتخصصون من تفسيرات علمية تتعلق بالإبهام والغموض العميقين بخصوص أصل الانسان. وبدلًا من ذلك نتلقىٰ مجرد خبر عن آخر نظرية لهذا الشخص أو ذاك ولا ينقلون لنا الحقيقة التي لم يستطيعوا هم أيضًا فهمها بخصوص هذا الموضوع. فيتم الترويج للنظرية وتزيينها بشكل دقيق وبالاستعانة ببعض الرسوم والصور المتخيلة لإنسان الكهف أو لجد الانسان.

والواضح أنه لم ينسج سابقًا أي خيال واسع إلىٰ هذا الحد بخصوص جزئية بسيطة إلىٰ هذا القدر في أىٰ فرع من فروع العلم المختلفة»(٦١) **!**

هامش الباب الثاني

• الفصل الأول:

(١) * Smithsonian National museum of natural history website: (http://vertebrates.si.edu/fishes/coelacanth/coelacanth_wider.html).

* The Creature Feature: 10 Fun Facts About the Coelacanth: (http://www.wired.com/2015/03/creature-feature-10-fun-facts-coelacanth)

* Amemiya et al: The African coelacanth genome provides insights into tetrapod evolution (http://www.nature.com/nature/journal/v496/n7445/full/nature12027.html).

(٢) * Darwin CR (1859). On the Origin of Species. London: John Murray: 107.

* living fossils; they have endured to the present day, from having inhabited a confined area, and from having thus been exposed to less severe competition

(٣) Casane et al, (2013). "Why coelacanths are not 'living fossils'". BioEssays 35 (4): 332-338.

(٤) Jennifer A.Clack (2005). Getting a leg up on land, Scientific American.

(٥) Katharine Sanderson, The land-based ancestor of whales.

Nature ١٩) Dec. 2007)
(٦) David Berlinski. On Evolution video interview. Cold Water production.
(٧) Charles Dawkins. INSIDE NATURE'S GIANTS: Great white shark Documentary.
(٨) Wright State University)2005, May 2). Great White Shark Evolution Debate. ScienceDaily.
(٩) فلتهتم جدًا بفكرة نفي السلفية وإثبات القرابة التي سيضطر إليها الدراونة تدريجيًا مع استمرار اكتشافهم لكثير من الكائنات حتىٰ وصلوا للإنسان نفسه وعلاقته بأسلاف القردة والنياندرثال وهو ما سنستعرضه لاحقًا!

- **الفصل الثاني:**

(١٠) Behe M. (1996) Darwin's Black Box.
(١١) Paley W. (1802) Natural Theology.
(١٢) Miller K.R. (2008) Only a Theory: Evolution and the Battle for America's Soul.
(١٣) Homo heidelbergensis: Evolutionary Tree information. Smithsonian National Museum of Natural History. Retrieved 18 March 2013.
(١٤) Wiedersheim, R. (1893): The Structure of Man: An Index to His Past History.
(١٥) Dunn R. (2012) Your Appendix Could Save Your Life. Scientific American (January 2, 2012).
(١٦) http://corporate.dukemedicine.org/news_and_publications/news_office/news/10151.
(١٧) Jerry Bergman, Ph.D.: Recurrent Laryngeal Nerve Is Not

Evidence of Poor Design (article) at: http://www.icr.org.

(١٨) * Lirette, Lesley Smallwood et al. Coccydynia: An Overview of the Anatomy, Etiology, and Treatment of Coccyx Pain. The Ochsner Journal 14,1 (2014): 84-87.

* Saladin, Kenneth S. 5th ed. Anatomy & Physiology: The Unity of Form and Function. P: 280.

* The Sacral and Coccygeal Vertebra. Gray's Anatomy of the Human Body.

(١٩) * Saladin, Kenneth S. 5th ed. Anatomy & Physiology: The Unity of Form and Function. P: 663.

* Jerry Bergman. Is the human male nipple vestigial?. (http://creation.com/is-the-human-male-nipple-vestigial)

(٢٠)د. عمرو شريف. كيف بدأ الخلق: ٢٠٠. (ط. مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١)

(٢١)السابق: ٢٠٣.

(٢٢)السابق: ٢٠٣.

(٢٣) Peter Godfrey-Smith (2003). Theory and Reality: An Introduction to the Philosophy of Science. pp. 72-74.

(٢٤)كيف بدأ الخلق: ٢٠٣.

(٢٥)السابق: ٢٠٣.

(٢٦)السابق: ٢٠٣.

(٢٧)السابق: ٢٠٠.

(٢٨)السابق: ١٩١.

(٢٩)السابق: ١٩١.

(٣٠)السابق: ١٩١.

(٣١)السابق: ١٩٩.

(٣٢)السابق: ١٩٩.
(٣٣) Darwin CR (1859). On the Origin of Species. London: John Murray: 189.
(٣٤) Gerald Schroeder. Evolution: Rationality vs. Randomness. Article at: (Geraldschroeder.com).
(٣٥)كيف بدأ الخلق: ٢٨٣.
(٣٦)السابق: ٢٨٨.
(٣٧)السابق: ٢٩٠.
(٣٨)السابق: ٢٨٩.
(٣٩)السابق ٢٩٠.
(٤٠)السابق.
(٤١)السابق: ٢٨٨.
(٤٢)السابق: ٢٨٩.
(٤٣)السابق: ٢٨٨.
(٤٤) Chimpanzee Sequencing and Analysis Consortium. Initial sequence of the chimpanzee genome and comparison with the human genome". Nature (1 September 2005).
(٤٥) Ibid.
(٤٦) Andy Coghlan (30 May 2002). "Just 2.5% of DNA turns mice into men. New Scientist.
(٤٧) Kangaroos, Humans Not So Different When It Comes to DNA. (November 18, 2008). Fox News
(٤٨) BETHESDA, Md. (8 December 2004). Analysis of First Avian Genome Uncovers Differences Between Birds and Mammals. National Human Genome Research institute.

(٤٩) Jeffrey Tomkins. (2013). Comprehensive analysis of chimpanzee and human chromosomes reveals average DNA similarity of 70%.

(٥٠) Todd Preuss. (May 2011). The human brain rewired and running hot.

(٥١) Jeffrey Tomkins. (2013). Comprehensive analysis of chimpanzee and human chromosomes reveals average DNA similarity of 70%.

(٥٢) Jeffrey Tomkins. (2014). Human lincRNA regions vastly different from Chimpanzee.

(٥٣)كيف بدأ الخلق: ٢٩٤.

(٥٤)السابق.

(٥٥)السابق: ٢٩٣.

(٥٦) Todd Preuss. (May 2011). The human brain rewired and running hot.

(٥٧) Philip Ball (25 April 2013). "DNA: Celebrate the unknowns". Nature 496. 419-420.

(٥٨) Ibid.

(٥٩) Ibid.

(٦٠)كيف بدأ الخلق: ٢٩٨.

(٦١) Jonathan Wells (2002). Icons of Evolution.



البَابُ الثَّالِث

حاكمية الوحي

تمهيد

في هذا الباب سنعرض بعض أمثلة لحاكمية الوحي علىٰ بعض أهم الأفكار التي هي من صميم أسس الداروينية المتأسلمة وسنحاول قدر جهدنا أن نظهر عدم استقامة النظرية في المثلث المنهجي المنضبط. الوحي في الأعلىٰ والعلم والعقلانية بالأسفل.

فما هو قادم مخصص لمن يؤمن بأرضية مشتركة في النقاش أصلًا وهم أنصار الداورينية المتأسلمة -وليس لمناقشة الدارونة الملحدين.

وسنبدأ أولًا بتفنيد زعم يعتمدون عليه كثيرًا. وهو كون الإنسان غير البشر. فأحدهما هو ما قبل آدم من كائن غير عاقل همجي كباقي الحيوانات والآخر هو الكائن المُكلف حفيد آدم عليه السلام.

في أول فصلين سنناقش هذه الفكرة التي يمكن تقسيمها إلىٰ جزئين: الجزء الأول وهو إثبات غلط الفصل بين البشر والإنسان. والجزء الثاني وهو إثبات غلط القول بأن ما غير بني آدم هو كائنات همجية بلا عقل.

ثم في الفصل الثالث سنناقش فكرة القول بأن حواء أصلها أنثىٰ قرد. وقائل هذا يخالف الأحاديث النبوية التي تتحدث عن خلقها بصورة خاصة مميزة من ضلع آدم.

وفي الفصل الرابع سنناقش مسألة خلق آدم عليه السلام من عدم.

وأخيرًا نناقش المنبع الشرعي للداروينية المتأسلمة: كتاب أبي أدم للشيخ عبدالصبور شاهين.



الفصل الأول

الفكرة الأولى: الإنسان غير البشر؟

(الإنسان هو سلف آدم من الكائنات أشباه القرود كنياندرثال وغيره. أما آدم ونسله هم بشر لا إنسان).

بهذا يؤمن معتنقو نظرية الداروينية المتأسلمة، ويؤكد د.عمرو شريف قائلًا أن «الله لم يأمر الملائكة أن تسجد لإنسان، لكن لبشر سواه ونفخ فيه من روحه. علىٰ هذا يصبح البشر مرحلة تالية للإنسان لا يعلم الله مقدار الوقت بينهما»[1] وهذا الكلام خلاصة فكره هو ود.حسن حامد عطية، وهو عكس وجهة نظر الراحل د.عبد الصبور شاهين الذي يرىٰ أن البشر كانوا أولًا ثم الإنسان، لكن ما يهمنا أن الجميع يكاد يتفق علىٰ كون الإنسان ليس هو البشر، بل يصل التحدي بدكتور عمرو شريف أن يقول «يؤيد هذا الفهم أن الله لم يطلق علىٰ أي من رسله وأنبيائه لفظ إنسان، بل تحدث عنهم دائمًا بلفظ بشر عبر عشرات الآيات القرآنية»[2].

إذن النظرية واضحة جدًا وبسيطة للغاية. لكن هل هي صحيحة؟ هل القرآن فعلًا لا يعتبرنا إنسانًا بل نحن بشر لأن هناك فارق بينهما؟ هل

الفصل بين الإنسان والبشر تؤيده (عشرات الآيات) كما يقول؟ تعالوا نأخذ المنهج التجريبي من القرآن للرد علىٰ زعمه هذا:

١- ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

من المُخاطب في الآية هنا؟

من المفترض تبعًا لتفسيره أننا بشر ولسنا إنسانًا، بالتالي فالآية لا تتحدث عنا نحن البشر أساسًا بل تتحدث عن أسلاف آدم! فهل هذا صحيح؟

إن الله سبحانه وتعالي في الآية يحدث عموم البشر بلفظ الإنسان، وهذا ليس (تفسير تراثي ينبغي تأويله) كما يقول دائمًا، بل هو ظاهر تمامًا بجملة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي تعني أنها تتحدث عن (الإنسان المكلف العاقل) الذي هو موجود الآن، لأنه يعتبر أن كل ما قبل آدم البشر هو إنسان غير مكلف ولا عاقل بل ولا روح فيه! إذن الإنسان عنده بلا روح، بلا عقل، بلا تكليف، وانتهىٰ قبل آدم عليه السلام؛ فعمن تتحدث الآية إذن؟ ولمن نزلت؟ إننا لو أخذنا بتفسيره لوجدنا أن الآية نزلت لتحدثنا عن ما قبل خلق آدم من كائنات مندثرة ألا وهي الإنسان؛ فلا معنىٰ لحديثها لنا بل هي تحدث المندثرين! بل وتعتبرهم مكلفين وعاقلين يعرفون الصالح من الفاسد، ثم أكثر من هذا تتحدث علىٰ أنهم لازالوا موجودين يتواصون بالحق (يعرفون الحق إذًا ويميزونه) ويتواصون بالصبر!

٢- ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾

إن الله هنا يتحدث عن (إنسان) عاقل يدعو وينسىٰ النعمة ويشرك ويكفر ويتوعده الله بجزاء النار علىٰ كفره؛ فهل الإنسان المقصود هنا هو سلف آدم؟ إلىٰ من تتحدث الآيات إن كان هذا صحيحًا؟ إن طبقنا النظرية فقد كان ينبغي أن نجد لفظ (بشر) في الآية مُستبدلًا بلفظ (الإنسان) ولا مجال أبدًا هنا للتأويل. إنما جاء لفظ إنسان هنا علىٰ أنه نسل آدم المخاطب في كل زمان ومكان حتىٰ يوم القيامة. فأين ما يدعم زعمهم عدم ترادف معنىٰ الإنسان مع البشر وأن كلا منهما كائن مختلف؟!

٣- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾

مرة أخرىٰ، الإنسان هنا هو من سيُحاسَب يوم القيامة، بل والآية واضحة أنها تتحدث عن عموم البشر العاقلين المكلفين الذين خُلِقوا وسيتم حسابهم يوم القيامة من كتابهم المنشور، إن طبقنا النظرية فنحن لسنا المخاطبين هنا أيضًا بل الله يحدث قومًا آخرين هم من كانوا سلف آدم! من سيحاسب يوم القيامة هو من يسمونه إنسان نياندرثال ولسنا نحن! الآية لا تتحدث عنا إطلاقًا!

٤- ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾

من الذي يدعو؟ من الموصوف في الآية؟ إن طبقنا النظرية فهي لا تتحدث عنا فمبارك لكم يا بشر من نسل آدم فالله لا يحدثنا أصلًا!

٥- ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

هنا الله يتحدث عن كلام الإنسان وإنكاره للبعث، ثم يذكره بأنه خلقه من لا شيء، ثم يؤكد قسمًا أن الله سيحشر (الإنسان) و(الشياطين) ممن كفروا إلىٰ جهنم. فهل ترىٰ فارقًا بين الإنسان والبشر في الآية؟ النظرية هنا تعني أن الله مرة أخرىٰ لا يتحدث عنا بل عن سلف آدم، لأن لفظ (الإنسان) غير عائد علينا إطلاقًا، لكنها تقع في تناقض حتىٰ لو قبلنا هذا التفسير! وهو أن الإنسان الذي يقترحونه لا عقل له ولا تكليف عليه بل ولا روح فيه أساسًا، بينما الآيات تتحدث عن إنسان عاقل مكلف له روح لكنه يرفض التكليف بجدل عقلاني منكر للبعث؛ فكيف تستقيم النظرية مع الآيات؟

٦- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

لاحظ أمرًا هامًا هنا، أن الله في الآية الأولىٰ ذكَّر الإنسان بأن بدء

خلقه كان من طين (آدم ﷺ)، وهنا يقفز أصحاب النظرية مهللين بأن هذا هو ما قصدوه بأن الإنسان غير البشر، وهذه الآيات يستدلون بها أن النسل والسلالة جاءا من نطف حتىٰ جاء البشر لا بالخلق المباشر إنما من أب وأم، لكن الفارق أن الله قد نفخ الله في روح آدم الإنسان فأصبح بشرًا وبالتالي كل ما جاء بعد ذلك هم (البشر) لا الإنسان.

هنا تجيء الآية الثانية، التي تتحدث عن أن خلق كل إنسان علىٰ حدة (وهم المخاطبون في الآية من نسل آدم) جاؤوا من نطف وتذكرهم بهذه النطفة التي خلقوا جميعًا منها، لا تذكرهم بجدهم مبدأ الخلق كما في الآية الأولىٰ؛ فهي تخاطب نسل آدم عامة، وهذا متفق مع ذكر ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ كما في الآيات الأولىٰ، وبالتالي نخرج من هذا بشيئين ينقضان نظرية تطورهم الداروينية المتأسلمة:

- أولًا: أن ﴿سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ التي جاءت في الآية ليس المقصود بها آدم وحده كما يحاولون الاستدلال، راغبين بذلك في إثبات أن التسوية قد حدثت لآدم فقط فهو أول معتدل في القامة من أشباه الإنسان المنحنية؛ فقد جاءت آية التسوية تالية لآية النسل من سلالة من ماء مهين، وبالتالي تالية لتعميم الخطاب علىٰ كل البشر: الأصل والنسل، مما يجعلها مطابقة لآيات خلق الأجنة، إذن حديث التسوية ونفخ الروح هنا عن كل البشر لا عن آدم مخصصًا.

- ثانيًا: أن الإنسان المخاطب في الآية الثانية هو (النسل) وهو مكلف عاقل يكفر بالله ويكون خصيمًا له، مما ينفي انفصال لفظ (بشر)

عن (إنسان) كما يحاول أصحاب النظرية الادعاء.

٧- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

من هو المخاطب؟

نعم. الإنسان.

فما فحوىٰ الخطاب؟

نعم. الوصاية بالأبوين. أي التكليف.

فماذا فعل هذا الإنسان المخاطب؟ طلب من ربه أن يشكر نعمته وجعل نفسه في زمرة المسلمين.

فهل الإنسان المخاطب هنا -حسب نظريتهم- هو نياندرثال غير العاقل غير المكلف؟

٨- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

هذه الآيات مشكلة عنيفة بالنسبة لأصحاب النظرية؛ فالأولىٰ تثبت أن الله قد (خلق الإنسان) في (أحسن تقويم) مما ينفي نظريتهم أولًا عن آخر لأن الإنسان عندهم هو الكائن المنحني من سلف آدم فهو قطعًا ليس (في أحسن تقويم) كما يدعون، ولا نجاة لهم من هذا المضيق العاصف

إلا بأن يجعلوا الإنسان هو التالي للبشر ويعكس نظريتهم كلها فيسقط كل ما بنوه من فرضيات!

٩- ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾

من الذي يقول هذا يوم القيامة؟ نعم. الإنسان المكلف العاقل الذي سيُحاسَب أمام ربه وقتها؛ فهل هو إنسان نياندرثال أم هو نسل آدم عليه السلام؟

١٠- ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

عن أي إنسان يدور الحديث في الآيات؟ العاقل المكلف أم غير العاقل غير المكلف؟ إنه العاقل المكلف يذكره الله بما سيحدث له يوم القيامة من إخباره بما قدم وأخر من الأفعال وأنه لن يتركه بلا حساب. بحسب النظرية فهذا الحديث غير موجه لنا بل موجه للإنسان غير العاقل غير المكلف وإلا لو كنا نحن المخاطبين لاستبدل لفظ (البشر) بلفظ الإنسان!

هل تكفي عشر أدلة لمحو تحدي د.عمرو شريف بأننا لن نجد البشر المكلفين يخاطبون علىٰ أنهم (إنسان) عبر عشرات الآيات؟!

❁ ❁ ❁

أما ادعاء د.عبد الصبور شاهين رحمه الله بأن البشر هم من كانوا قبل آدم الإنسان ونسله فهل يكفي للرد عليه تلك الآيات لإبطاله:

١- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

حسب نظرية د.شاهين فالحديث هنا يدور عن سلف آدم غير العاقلين؛ فهل كان فيهم أنبياء ورسل وهل كان عندهم لغة؟ هو يرفض هذا تمامًا فكيف يدعي أن البشر هم المنقرضون؟

٢- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

مريم عليها السلام هنا تتحدث عن (البشر) لا عن (الإنسان). فهل هناك فصل بينهما فعلًا؟

٣- ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

هنا الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن الأنبياء بشر، ليسوا (إنسانًا). لهذا كان يستدل د.عمرو شريف أن الله يخاطب الأنبياء بلفظ (بشر) وهو ما ينفي نظرية د.شاهين تمامًا. وجمعها بالأدلة السابقة ينفي نظرية د.عمرو شريف أيضًا! إن نظرية الفصل بين المعنيين إلىٰ نوعين من الكائنات المتتالية نفسها تندثر إن جمعنا بين هذه الآيات وسابقتها.

٤- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

الله يذكر اليهود والنصارىٰ بأنهم (بشر) ممن خلق. وهم مكلفون عاقلون لهذا يحاسبهم الله بالثواب أو العقاب.

أخيرًا:

٥- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾

من الذي سيُخلَق؟ آدم. البشري آدم لا الإنسان المتطور بمفهوم د. شاهين. وفي الآيات التي جاءت ردًا علىٰ د. عمرو شريف نجد أن الذي خلق من طين هو أيضًا «الإنسان». فكيف يجمع هؤلاء بين تلك المتناقضات إن صمموا علىٰ فصل البشري عن الإنسان؟

❀ ❀ ❀

بجمع الآيات كلها نجد الترادف وليس كما حاول دعاة الداروينية المتأسلمة الادعاء، ليس الإنسان خلقًا مختلفًا هو سلالة أشباه القردة ومنه جاء البشر المكلفون العاقلون كما يدعي د. عمرو شريف، وليس البشر هم الأصل الخلق المختلف سلالة أشباه القردة ومنهم جاء الإنسان المكلف العاقل كما يدعي د. عبد الصبور شاهين. نظرية الفصل تضرب بعضها البعض وتناقض القرآن تمامًا ولا سبيل لجمعها معه منطقيًا عقليًا كما يدعون، ولا أدل علىٰ ذلك من تضاربهم في إثبات من جاء أولًا: البشر أم الإنسان!



الفصل الثاني

الفكرة الثانية

ما قبل آدم كانت كائنات بلا عقل كسائر المخلوقات

هل باقي المخلوقات بلا عقل حتىٰ يقال عن سلف آدم أنه يغيب عنهم العقل؟

هل تعامل معها القرآن والسنة بهذا الوصف؟ لنستعرض هذا في النقاط التالية:

- **أولًا: مفهوم الرقي العقلي**

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لآية ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ «**أي**: أسوأ حالًا من الأنعام السارحة؛ فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم»(٣).

لاحظ هنا أن الإمام لم ينفِ عن الأنعام العقل بل أثبته، إنما وضع قيدًا لحدود التكليف المفروض عليها ومعرفتها إياه.

بينما يقول الإمام القرطبي «إن هم إلا كالأنعام أي في الأكل

والشرب لا يفكرون في الآخرة. بل هم أضل سبيلًا إذ لا حساب ولا عقاب علىٰ الأنعام. وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتهتدي إلىٰ مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم»(٤).

مرة أخرىٰ هنا الإمام القرطبي رحمه الله يتحدث عن التكليف، الأنعام هنا لا تفكر في الآخرة كثيرًا لسقوط تكليفها بالشرائع والدعوة والعبادة مما كرم الله بني آدم به، وبالتالي أوجب عليه حساب الآخرة وهو ما لا علاقة للأنعام به.

لكن هذا التفسير بسقوط تفكيرها بالآخرة قد يصطدم بالآية التالية:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ **فقد دل أن كل تلك الكائنات سيتم حشرها وأيضًا الآية الأخرىٰ** ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ **والحديث النبوي عند مسلم يقول (أن رسول الله ﷺ قال لتؤدُّنّ الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة حتىٰ يقادُ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) وفي الحديث الصحيح الآخر (يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتىٰ إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرىٰ قال الله: كونوا ترابًا؛ فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا) أي أن المصير النهائي للأنعام ليس كالمصير البشري، لكنها مع ذلك تحشر وتحاسب مما دل علىٰ وجود عقل لها وهو الموافق لآيات النمل الذكي والهدهد والتأكيد علىٰ أن كافة الطيور والحيوانات هي** ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾.

إذن القضية المقصودة في الآيات لا علاقة لها بوجود عقل عند الأنعام أم لا، بل في وجود التكليف والتشريف بحمل الأمانة التي كرم الله بني آدم بحملها. فكان عقل الأنعام وغيرهم من الأمم محدودًا بما خلقت له، لا يملك السعة والتركيب الذي تميز به عقل البشر. ونفي عقلانية الأنعام مطلقًا لعدم تطور عقلها إلىٰ مستوىٰ البشر -يعني نفي عقلانية بعض الأمم البشرية نفسها لعدم تطور عقلها بالتعليم إلىٰ مستوىٰ أمم أخرىٰ! فمادام قد صح وجود تفاوت بين أمم النوع الواحد البشري مع التسليم بوجود العقل والتفكير عند الجميع؛ فكيف لا يصح هذا مع الأنعام والبهائم؟

إن وجود التفاوت في القدرات العقلية لا ينفي وجود العقل عند الآخر، وهكذا هو الحال مع الأنعام والدواب والطيور الأخرىٰ -فهذا هو مقصود الآية والله أعلم، كما نستشف من قول الإمام ابن كثير، وكذلك لعدم وجود تكليف لها كما للإنسان، كما نستشف من قول الإمام القرطبي.

وإن ذم الله لأي آدمي بأنه كالأنعام بل أضل -من أعظم أنواع الذم؛ فهو يعني أن هذا البشري رد عقله بإرادته إلىٰ درجة الأنعام العقلية التي هي أقل رقيًا من كافة البشر، ورد جنسه عمومًا إلىٰ مرتبة الدواب في التكليف، لذا فهو أكثر ضلالًا لأن الأنعام هذا هو ما خلقت من أجله وهذه هي قدراتها، بينما البشري الذي صنع في نفسه هذا فعله بإرادته الحرة متخيرًا الدناءة متحررًا من التكاليف والسمو المربوط بها.

والحقيقة أن ماهية الرقي العقلي هنا نفسها تحتاج إلىٰ بعض توضيح؛ فالله لم يحدد رقي العقل بالقدرة الحضارية المادية بل بقبول التكليف الإلهي؛ فتكون حضارات مادية عظمي كعاد وإرم هي جاهلية مذمومة، يدخل صانعوها في إطار الآية ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ برغم أن إمكاناتهم العقلية جعلتهم يصلون بالحضارة إلىٰ رقي هائل علىٰ المستوىٰ المادي، لكن الله ينبهنا أن الأمور لا تحسب هكذا.

رُقي العقل لا يُحسب بحجم منتجه الحضاري المادي إنما بحجم إدراكه للتكليف الإلهي وقبوله له؛ فحضارة قد تكون بمقاييس البشر أكثر بدائية لكنها تؤمن بالله وتفهم تكليفه لها بالعبادة والدعوة وتعرف سر الأمانة الثقيلة الموضوعة في عنقها -تكون أكثر رقيًا وعقلانية من حضارة عظمىٰ بلغت شأنًا ماديًا وفكريًا أكبر لكنها لا تعرف الله ولا تؤمن به ولا تقبل بأي تكليف شرعي.

فالأخيرة الراقية بالمقاييس المادية هي في حقيقتها جاهلية لم يرتفع صانعوها عن الأنعام عقلًا، بينما الأخرىٰ المتخلفة حضاريًا بالمقاييس المادية هي في حقيقتها مؤمنة تامة الرقي من جهة العقل والإدراك. مقاييس الله تختلف عن مقاييس عباده من بني البشر.

إذن فهذه الآية لا يصح الاستدلال بها لنفي العقل عن الأنعام، وإلا صح الاستدلال بها لنفي العقل عن كثير من البشر الآخرين، بل يصح الاستدلال بها فقط لتبيان فوارق الإدراك العقلي والتكليف، وهذا ما يتناغم مع باقي الآيات والأحاديث التي تتحدث عن حشر وحساب

كافة الأمم من كافة الأنواع الحيوانية وحتىٰ الحشرات كما في قول الإمام ابن عباس «يحشر كل شيء حتىٰ الذباب»[٥] ولا حساب إلا بوجود عقل يدرك علىٰ الأقل الفارق بين (الخير) و(الشر) مما يجعل هناك قصاصًا بين بعضها البعض في الآخرة حيث يقتص الخيِّر من الشرير، وهذا لبساطة عقلها مقابل تركيب العقل البشري، لكن نهايتها مختلفة فهي تتحول إلىٰ تراب لأن مصيرها غير مصير الإنسان المكلف الأكثر رقيًا في العقل والتكليف.

❁ ❁ ❁

- ثانيًا: مفهوم الأممية للمخلوقات

إن قسمنا الكائنات إلىٰ بدائية وعليا في سلسلة التطور ووضعنا الإنسان عند أكثرها رقيًا لأنه تميز بالعقل بينما الباقي فيه همجية الهوام؛ فسنُصدم أمام آيات قرآنية ترفض هذا التقسيم قطعًا؛ فهي لا تصف ماعدا الإنسان بالهمجية بل هي (أمم أمثالكم) ولها عقول مفكرة ذكية كما نرىٰ في واحدة من أصغر الحشرات (النمل) وهي تراقب مسيرة النبي سليمان عليه السلام وتستنتج المسار الذي سيسحق باقي أمتها ثم تقوم بتنبيههم لاتخاذ إجراء للنجاة؛ فأي همجية أو انعدام (عقل) في هذه القصة القرآنية؟ لقد حدثت النملة قومها فدل ذلك علىٰ وجود لغة لهم، وهم ذوو تشكيل خاص (قوم) وقد رأت واستنتجت هوية القادمين (سليمان وجنوده) ومسارهم وما يمكن أن يحدث (يحطمنكم) وهذا كله يؤكد

تمامًا الحقيقة القرآنية الأخرىٰ المصاغة في صورة قانون حاسم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ﴾. لاحظ أن النملة قد ميزت سليمان من جنده ولم تقل (بشرًا) بإطلاق، مما يعني أنها تمتلك القدرة علىٰ (التراكم المعرفي) و(القدرة علىٰ التمييز) بين سليمان وغيره من البشر ثم بين البشر العاديين وغيرهم من المجندين والظاهر في إدراك معنىٰ (الجنود) وهذا جميعه من أخص خصائص العقل الناضج.

بل وقصة الهدهد القرآنية أكثر تميزًا فقد امتلك الهدهد عقلًا واعيًا كي يستنكر فعل قوم سبأ، إذ كيف يتبع هؤلاء تلك الوثنية؟! لقد أدرك الهدهد الوثنية وأفعالها المناقضة للإيمان الصحيح فاستنكرها ثم راقب الأمر وتأخر، ثم اعتذر وحكىٰ لينجو بحياته. فأي (همجية) في ذلك الإدراك المتطور؟! بل أدرك ما هو أعقد: أدرك مخالفة ملك المرأة للأعراف!

إذن يدل هذا علىٰ أن الهمجية أو التطور لا يتحددان من حجم العقل ولا مكان الكائن في سلسلة (التطور) المزعومة. بل كل مجموعة من الكائنات (أمة وحدها) لها مميزاتها الخاصة (القومية) مثل اللغة، والتي كرم الله سليمان عليه السلام بتعليمه لغاتها المختلفة؛ فدل ذلك علىٰ أن هذه الأمم مختلفة اللغات لا يفهم كل نوع منها لغة النوع الآخر. وهو اختلاف مركب تمامًا لا علاقة له بالاختلاف اللغوي بداخل النوع الواحد كما بين البشر بعضهم البعض حين يتحدث بعضهم العربية والآخرون الإنجليزية؛ فالاختلاف الأخير يمكن القفز عليه بسهولة

وليس مكرمة إلهية أن يقدر العربي علىٰ التحدث بالإنجليزية؛ ففي نطاق نفس (الأمة) الكبرىٰ للنوع البشري قد تختلف اللغات لكنها تستعمل نفس المصادر والحركات والأساليب (النطق) بينما هي ليست كذلك بالنسبة لكل أمة أخرىٰ؛ فالكلام عندهم قد لا يكون نطقًا ولا يستعمل نفس المصادر أو الحركات والأساليب الفمية، لهذا كانت مكرمة من الله لنبيه سليمان أن جعله يقفز الحاجز اللغوي بين (الأنواع) المختلفة ليحدث كافة (أمم الأرض) المختلفة، وهذا يصب في صالح تميُّز أصل كل نوع وحده ويلغي تمامًا فكرة الأصل المشترك للأنواع المختلفة.

ومادامت الأنواع المختلفة أممًا مختلفة، وكل أمة منها عاقلة بشكل خاص وتتبع كافة القواعد الذكية للأمم، إذن فما معنىٰ أن يدعم أحدهم النظرية التطورية الداروينية المتأسلمة التي تقول إن آدم كان له أب وأم (همج بلا عقل) من (الإناسي) معتمدًا علىٰ أن كل ماعدا بني آدم فيه همجية -فكان آدم عليه السلام أول الكائنات العاقلة؟

إن كل ما عدا آدم هو (أمم) لها (لغة) و(عقل) و(فكر) كذلك، ولا توجد همجية فيهم علىٰ الإطلاق، وإن كان لآدم عليه السلام أب وأم كما تفترض الداروينية المتأسلمة؛ فيلزم أن يكون هذا الأب والأم جزءًا من (أمة) لا همجية فيها لأنهم كانوا أكثر تطورًا من الحشرات والدواب وغيرهم، مما ينفي فكرة أن يكون آدم عليه السلام أول العاقلين، مادامت (النملة) عاقلة فما هو أكثر تطورًا (أناسي نظرية الداروينية المتأسلمة) أكثر عقلًا بالتأكيد منها لأنهم أكثر تطورًا، وبالتالي فآدم لن يكون وقتها

أول (العاقلين) و(المفكرين) فيصبح مجرد جزء من سلسلة التطور لا ميزة له علىٰ الإطلاق وهذا ينفي أحد أهم أعمدة النظرية المتأسلمة؛ فماذا يفضل آدم علىٰ سلالته المزعومة إذن إن كانت تملك عقلًا وفكرًا وأمة بالضرورة؟ إنها تزعم أن الله جعله (عاقلًا) كأفضل حلقة في سلسلة التطور لكن كيف ذلك وقد دلت الآيات علىٰ أن الله سبحانه قد جعل العقل في كل (أمة) أخرىٰ علىٰ سطح الأرض من الدواب والطير وأصغر الحشرات؟

إن مجرد لفظ (أمة) ووجود (لغة خاصة) يلزم بالضرورة وجود نوع من التنظيم (العاقل) غير الحصري علىٰ آدم ونسله بل مماثل لهم في صورة متوازية (أمثالكم) ويصبح كل كائن في سلسلة التطور المزعومة له تلك الصفات حتىٰ ما قبل (آدم) عليه السلام وهذا ينافي النظرية المتأسلمة تمامًا.



- ثالثًا: تميز الحيوانات في القرآن

يصر التطوريون علىٰ الإيمان بالسلف المشترك للكائنات، وأن كل كائن ليس إلا مجرد تطور (عشوائي أو موجَّه لمواجهة ظروف بيئية) من سلف سابق؛ فهل القرآن الكريم والأحاديث النبوية تدعمهم في هذا الرأي؟

الحقيقة أنه كما صنفنا الأمر سابقًا: مناقشة فرضية تطور الكائنات

أمر يمكن قبول الخلاف فيه، لكن المستحيل هو الخلاف في فرضية تطور الإنسان.

لكن! هل حقًا يمكن قبول الخلاف في فرضية تطور الكائنات دون جدل؟!

أعتقد أنه حتىٰ هذه النقطة فيها إشكال وبتأمل معقول قد تصل لصعوبة فرضية تطور الحيوانات من سلف مشترك.

من المفترض إن تطورت الكائنات من سلف مشترك عدم نزوع الآيات إلىٰ التمييز بين المخلوقات المختلفة؛ فما وجه تميز الأنعام ومنها البقر عن الحوت إن كانت الأولىٰ جد الأخير. لا يعقل الحديث التمييزي لخلق الكائنات المختلفة فإن هي إلا تطورات جاءت للتكيف مع البيئة.

فالإبل مثلًا كانت مجرد تطور عن حيوان منقرض يشبه الأرنب اسمه بروتيولوبوس، ثم كبر حجمه وأصبح حيوانًا اسمه بويبروثريوم في حجم الماعز. ثم منه جاء الجمل الحالي.

ما الدليل علىٰ هذا؟ مجرد حفريات مختلفة لكائنات منقرضة تم الربط بينها وبين الجمل الحالي، وبدلًا من وضعها في نفس التقسيم الحالي للكائنات (فصيلة الجمال بأنواعها مثل اللاما) تم اعتبارهم سلفًا للجمال الحالية! لماذا؟ فقط لسد فجوات نظرية التطور. لابد من عدم الاعتراف بشيء اسمه ظهور مفاجئ للجمال فهذا يدعم نظرية الخلق

المباشر، بل لابد من إيجاد حلقات متسلسلة مهما بدا الأمر غير منطقي ولا عقلاني. هكذا نجدهم يعتبرون شبيه الأرنب هذا هو جد الجمل الحالي وكائنًا آخر يشبه حيوان (الفيكوجنا فيكوجنا) المعاصر (الذي لم ينقرض بعد) هو الجد الأقرب للجمل الحالي!

لكن القرآن يتكلم بصورة تميزية عن الإبل ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وفي الحديث الصحيح أن خلقها كان خاصًا، مما يعني أن سلفها لم يكن البروتيولوبوس أو البويبروثريوم. وما الحديث التمييزي لها وللنظر في خلقها إلا طلب من الله ﷻ أن نتأمل بديع صنيعه في هذا الكائن بشكل تمييزي «الإبل» فكيف يقال أن لها سلفًا آخر لا علاقة له بها إلا بصفات تشريحية نادرة؟!

نفس الأمر يقال عن الأنعام، التي إن عممت كانت علىٰ البقر والغنم والإبل، والتي قد جاءت الآيات العديدة المتواترة تؤكد تميزها وتفردها في الخلق؛ فيقول رب العزة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ هنا الأنعام (مخلوقة) بقدرة الله وقد سخرها للبشر، كذلك: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ هنا تمييز لخصائص محددة ثبتها الله من بداية الخلق للأنعام، كذلك الآية الكريمة ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فما تفسير أنزل هنا عند التطوريين وهم يؤمنون أن الغنم والإبل والبقر كل له سلف مختلف ويحمل صفات مختلفة عما وصفها الله لتمييز الأنعام بالذات؟

ونفس الأمر نجده في النحل، بينما يعتبره علماء البيولوجيا منحدرًا هو والنمل من سلف مشترك هو الدبور، عن طريق تطور دارويني؛ فإن الله يخبرنا في القرآن قصة مختلفة مميزة لخلقه بذاته ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إن الله هنا يبلغنا أنه خلق النحل ثم أوحىٰ إليها بخطة الفطرة التي ستنفذها؛ فما علاقة هذا بالادعاء التطوري أن الدبابير تحولت من أكل الحشرات إلىٰ أكل اللقاح لأنها قد تكون استهلكت الحشرات التي تتغذىٰ عليها فأصبحت نحلًا؟!

إن عشرات الآيات القرآنية تتحدث عن الحيوانات المميزة وخلق الله لها لأسباب مختلفة، وادعاء أن بعضها تطور بسبب ظروف مختلفة وما إلىٰ ذلك من محاولة الزعم بأن كل حفرية تشبه الكائنات الموجودة حاليًا هي (سلف) لها -هي محاولة لا معقولة وبقليل من التأمل في القرآن يثبت عدم صحتها. خاصة إن أضفنا السنة الشارحة والتي تمتلئ بتمييز الحيوانات عن بعضها البعض، حتىٰ إن الله قد جعل الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب بينما الهررة حكمها مختلف؛ فإن كان (السلف) مشترك وما الكلب إلا تطور للذئب الرمادي والجميع ذوو سلف مشترك، إذن ما فائدة التمييز في الأحكام بين بعضها البعض؟

إن السلف المشترك يُذيبُ كثيرًا من حواجز التمييز بين الكائنات

ويمنع عنا الفهم السليم لكثير من الآيات القرآنية؛ فأغلبها تتحدث عن حيوانات مختلفة الأنواع بوضوح مخلوقة بصورة متخصصة، والسلف المشترك يرفض هذا تمامًا.

وإن كان من الممكن قبول هذا الرأي بصعوبة، برغم معارضته لظاهر القرآن والسنة؛ ليسر التأويل هنا مقارنة باللي المؤلم للنصوص وإنكار كافة تفسيراتها المنقولة سماعًا والمعقولة نظرًا -وهو الذي حدث في محاولات إثبات السلف المشترك للإنسان- إلا أنه مع ذلك قد يصطدم بقضية محورية متشعبة فقهًا وأصولًا: وهو أن الفعل المُكلَّف بامتثاله من الشرع من شروطه استحالة قلب الأجناس. فكيف تُكلَّفُ بترك لحم الخنزير ثم ينقلب الخنزير بعد هذا كائنًا آخر؟ بل عدة كائنات أخرىٰ متداخلة بين أنواع المباحات الأخرىٰ؟ هل وقتها ستتبع تلك الكائنات كلها الأصل في الحكم بحرمة أكل لحومها جميعًا واستقذارها جميعًا بذواتها؟ أم سيشتعل الصراع وقتها بين طوائف الأصوليين والفقهاء والمتكلمين علىٰ وجوب الإيمان بانقلاب الأجناس وما يستتبعه ذلك من بروز فقه جديد عن الحكم الشرعي في الأكل من كائن متطور/ منقلب عن الخنزير -ونحن هنا لا نتحدث عن مسألة الفقه الخاصة بتولُّد حيوان ما من آخرين طاهر وغير طاهر. بل نتحدث عن تطور طبيعي لغير الطاهر نفسه انقلب به إلىٰ عدة أجناس أخرىٰ منها ما قد يكون مظهرًا وجوهرًا مما يجب تصنيفه مع الأنعام! وماذا عن كائن قذر متطور عن كائن حلال أكله؟ ماذا عن كائن جديد متطور عن كلب فهل يكون مُنجِّسًا

بذاته؟ إن كل تلك الأسئلة قد تبدو عبثية؛ لكن لازم الإيمان بإمكان قلب الأجناس والأصل الواحد لها يدفع المؤمنين به بالتفكُّر في فروع فقهية شرعية وكلامية كبرىٰ منها ما سبق ولن يكون آخرها إثارة قضية عبثية الأمر التكليفي في الأَزَل بوجوب أو حرمة أو جواز التعامل مع جنس كائن مُعيَّن - بينما كل الكائنات تنقلب من بعضها البعض وجنس الكائن نفسه يصير في حالة بينية تصير ذاته فيها (معدومة/ موجودة)!

وإن لم يكن قلب الأجناس محال في العادة -ما عده الله سبحانه معجزة دالة علىٰ قدرته بمسخ قوم من اليهود قردةً وخنازير خرقًا للعادة! ولا يصح القول هنا بأنها كانت معجزة لأهل زمانهم فقط لغياب العلم بإمكان التطور وقلب الأجناس طبيعيًا عنهم -فالمعجزة خرق لعادة كونية غير مقيَّدة بزمان ولا مكان وإنما هي مقيدة بمن تجري علىٰ يديه وهو النبي؛ فهي معجزة للبشر في كل زمان ومكان وإن كنا نؤمن أن حدوثها بعد عهد الأنبياء محال.

قد تُفرِّع من هذا الطريق الأَزْلُ مئات القضايا الضخمة المؤثِّرة في صلب الدين نفسه!



الفصل الثالث

الفكرة الثالثة. قردة تطورت فأصبحت حواء؟!

هل المرأة خُلِقت بالأمر المباشر أم بالتطور؟

هذه المسألة بالذات مفصلية في النظرية المتأسلمة، لأنها تدعي أن المرأة حفيدة أنثىٰ القرد جدة حواء التي جاءت من التطور وملخص إيمانهم في هذا الأمر يخبرنا به د.عمرو شريف «نشأ مجتمع القنص والجمع الذي يقوم فيه الرجال بالصيد والإناث بجمع الأغذية النباتية وهو أسلوب المعيشة الذي استمر ما يزيد عن مليوني سنة، وأمكن ذلك تكوين الأسرة وتماسكها وساعد علىٰ هذا قبول أنثىٰ الإنسان ممارسة الجنس في أي وقت علىٰ عكس غيرها من الثدييات التي لا تقبل الجنس إلا عند التبويض أحيانًا مرة كل ستة أشهر، وقد صاحب ذلك اختلاف أسلوب الممارسة الجنسية عن باقي الثدييات أصبح وجهًا لوجه»[٦].

هكذا هو الأمر عندهم. تاريخ تطوري دارويني فيه أنثىٰ قرد (يعتبرونها إنسانًا) قبلت فجأة الممارسة الجنسية الدائمة وغيرت من وضعها (فجأة) فأصبحت هي حواء التي من نسلها نساء العالمين.

فما حجم قبول القرآن لهذه النظرية التطورية؟

يحدث الله البشر في القرآن مذكرًا إياهم بنشأتهم الأولىٰ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي آية ظاهرة في أن بداية الخلق كانت (نفس واحدة) أي فرد واحد. وهو آدم عليه السلام. وإن جادل أحدهم في معنىٰ النفس الواحدة (ربما كان يقصد البكتيريا أصل الخلق عندهم!) فيدحض كلامه استكمال الآية: من نفس آدم جاءت زوجها حواء. أي أن العنصر الأنثوي تواجد بعد العنصر الذكري. وواضحة دلالة لفظ (زوجها) في إثبات أن المقصود من الآية هو أن البشر جاؤوا نتاج أول تزاوج في التاريخ بين العنصر المذكر المخلوق (آدم) والعنصر الأنثوي المشتق من ضلعه (حواء). واستخدام (خلق منها) و(زوجها) تنفي تمامًا وجود أي عملية جنسية بين مذكر ومؤنث قبل خلق آدم وحواء عليهما السلام. وهذا يجعل كلام د. عمرو شريف نوعًا من الخبط عند عرضه علىٰ هذه الآية فقط؛ فما بالك إن عرضناها علىٰ السنة؟

يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء). فما هو استنتاجنا منه؟ وهل يوافق القرآن أم يوافق نظرية الداروينية المتأسلمة؟ لنرَ:

١) القرآن يخبرنا أن البداية كانت (فردًا) هو آدم ثم جاء منه شخصيًا (زوجه) وهي الأنثىٰ كافتتاح للعملية الجنسية التي ستبدأ التاريخ البشري.

٢) الحديث يخبرنا أن البداية كانت (فردًا) خلق مباشرة من ضلعه الأنثىٰ لتصبح زوجته التي تستفتح بها البشرية. زاد الحديث في تبيان موضع الخلق المباشر الذي خرجت منه الأنثىٰ للتدليل علىٰ طبيعة خاصة بها تحتاج إلىٰ أسلوب في التعامل فيه رحمة وتفاهم.

٣) النظرية المتأسلمة ترفض هذا الكلام. الذكر والأنثىٰ لهما أصل مشترك تمايز إلىٰ نوعين من القردة (ذكر وأنثىٰ) ثم القردة كانت تعيش بصورة بهيمية وبدأت مع الوقت تغير من وضع ممارساتها الجنسية وعاداتها فجاء الإنسان الحالي.

فهل هذه النظرية تصطدم القرآن والسنة أم لا؟ لقد قامت بإلغاء مسألة خلق آدم المتفردة بالأمر المباشر أولًا. إنما جاء من أب وأم. وهكذا فقد كانت العملية الجنسية متواجدة قبل ظهوره أصلًا. فما معنىٰ قول الله ﷻ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؟ الآية مقصود بها آدم وهذا متفق عليه. والنظرية تقول أن آدم لم يُخلق منه شيء. بل كانت الأنثىٰ متواجدة أصلًا والجنس متعارف عليه جدًا وربما قابل آدم حواء في أحد المتنزهات فتعارفا وتزاوجا كما يحدث منذ ملايين السنين قبلهما! أليست هذه هي النظرية ببساطة؟ هل تجد تفسيرًا آخر؟

الأنثىٰ والذكر جاءا بصورة طبيعية معًا. ليس لأي منهما أسبقية علىٰ الآخر (وإلا فلا معنىٰ للعملية الجنسية بينهما) وقد تطورا بصورة طبيعية من التزاوج كالقرود في مواسم التبويض فقط إلىٰ التزاوج في كل الأوقات، ومن هنا جاء الإنسان بعد تغيير وضع الممارسة الجنسية. أين

هذا من الآية القرآنية والحديث؟ وما معنىٰ تذكير الله للبشر أنهم جاؤوا من أب واحد إذا كان هذا الأب آتيًا من سلسلة ضخمة من القرود المتطورة وأشباه الإنسان؟ لقد تعمد د. عمرو شريف استخدام كلمة (الإنسان) لا القردة في عباراته ليؤكد أن كل القرود التي جاء منها الإنسان عنده هي (إنسان أيضًا) وكيلا يقال، رفضًا له، بأنه يصف مجتمع القرود فما شأننا به!



الفصل الرابع

الفكرة الرابعة. آدم من أب وأم لا من عدم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

تدبر هذه الآية وفكر فيها جيدًا. يصر أتباع الداروينية المتأسلمة أن خلق آدم عندما جاء من تراب قد كان عبر ملايين السنين وعبر التطور من تراب فخلية بكتيرية فكائنات متعددة مثل الفأر ثم القردة ثم أشباه الإنسان ثم آدم عليه السلام الذي جاء من أب وأم. وحجتهم الدائمة في ذلك أن آدم هو أول البشر بالتالي فهذا هو المقصود بأن خلقه قد تم من تراب فهو أصل الكائنات الحية. ما هو دليلهم علىٰ نجاح هذه النظرية؟ هو اعتبارهم (ثم) تفيد التراخي. فيعتبرون الآيات التالية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هي أكبر دليل علىٰ التطور لأن (ثم) هنا تفيد التراخي. إذن بين آدم والطين ملايين السنوات هي ما تعنيه كلمة (ثم) هنا. ولم يخلق آدم مباشرة.

وهذه النظرية بكافة أبعادها تهتز أمام الآية التي ذكرت أولًا. فقد قال الله سبحانه وتعالى أن عيسىٰ عليه السلام قد خُلِق بنفس الكيفية. ليس عن طريق

تزاوج جنسي بين أب وأم. وثم هنا لم تكن تفيد التراخي طبعًا. وإلا لزم أن نؤمن أن عيسىٰ عليه السلام كان نتاج عملية جنسية بين أب وأم وهذا لم يحدث يقينًا ومن يؤمن بهذا يخالف القرآن صراحة. إذن (ثم) في خلق سيدنا عيسىٰ عليه السلام لم تُفِد التراخي الذي يُستنتَج منه وجود ملايين السنوات قبل خلقه. ألا يهدم هذا ذلك التأويل المتكلف الذي ادعوا صحته؟ لقد كان جل اعتمادهم علىٰ (ثم) هذه ولم تكن بذات المعنىٰ في آيات داخل سياق مماثل! لم تكن تعني (ملايين السنوات) بل كانت تعنىٰ أن الحدث وقع تلو الحدث مباشرة.

ثم ألا يزيد ذلك التأويل ابتعادًا حقيقة أن الله قد اختار عيسىٰ الذي نتج من حالة خلق خاص لا يخالف فيها أحد (غاب المني المذكر علىٰ الأقل في خلق عيسىٰ عليه السلام وهو ما يعني أن العملية الجنسية غائبة تمامًا) ليُثبِت أن حالته من هذه الجهة هي نفس حالة آدم عليه السلام؟ خلقه من تراب ثم قال كن فيكون. معنىٰ هذا إخبار الله لنا أن خلق عيسىٰ لم يتم بالعملية الجنسية وإنما بالأمر المباشر -تمامًا كما حدث في خلق آدم. هذا الله سبحانه وتعالى يخبرنا بتماثل الحالتين في جانب الخلق المباشر فكيف لأحدهم أن ينفي هذا التماثل؟

إن كل مسلم يؤمن بأن خلق عيسىٰ عليه السلام قد جاء بكلمة. جاء عبر خلق إعجازي خاص مباشر يخالف الطبيعة. وهذه مسألة لا خلاف عليها بين الجميع. فكيف يؤمن أن هذا لم يتم مع آدم عليه السلام ويرفض تماثل الحالتين بينما الله سبحانه وتعالى جاءنا بآية واضحة تمامًا لا لبس فيها أنهما

متماثلان من جهة الخلق بالأمر المباشر؟!

الآية واضحة أيضًا في أن كلاهما جاءا بأمر خاص للتحول مع اختلاف المسار بعد ذلك: آدم عليه السلام ظهر مباشرة كناضج وعيسىٰ عليه السلام ظهر كجنين فطفل فشاب ناضج. الفرق في المسار النهائي بعد ذلك لكن مسار النشأة واحد: عدم -ثم تراب -ثم أمر مباشر بالخلق -فنفخ للروح. وظاهر مقصود الله من الآية إثبات تماثل مسار النشأة الأولىٰ مع اختلاف المسار النهائي.

ومن ناحية السنة فهي تحسم القضية تمامًا لصالح خلق آدم بصورة خاصة من غير أب ولا أم.



الفصل الخامس

قالوا إنما نحن مصلحون.

جولة في المنبع الشرعي للداروينية المتأسلمة (أبي أدم)!

أن يُفسِد المرء من حيث يظن في عمله الإصلاح!

هذا هو التوصيف الأمثل لعمل الشيخ الراحل د.عبدالصبور شاهين، عالم اللغة والشريعة الذي قضىٰ حياته ثورة علىٰ أعداء الله من العلمانيين واليهود وغيرهم؛ فأصابه غلو في العداوة حتىٰ تشكك في بعض تفسير القرآن نفسه وعزاه إلىٰ اليهود! ومن هنا كانت ثورته علىٰ هذا التفسير هي ثورة علىٰ (إسرائيل) وطعنة ظنها في قلب اليهود وقلوب أذنابهم في أمتنا من المنافقين العلمانيين!

يقول الشيخ عن الغرض الرئيسي لبحثه «الهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيلية المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل وعلم ونور»(٧) **ويقول في مقدمة الطبعة الثانية** «أما الكتاب فقد كان صخرة أردت أن أدق بها رأس الأفعىٰ الإسرائيلية اللابدة في الثقافة الإسلامية القديمة، ممثلة فيما سمي بالإسرائيليات، وهي لا تعدو أن تكون أساطير خرافية تسلت إلىٰ الفكر الإسلامي . . وهي في الواقع

أفعىٰ إسرائيلية اعتنقها كثير من الرجال ممن لم يُعملوا عقولهم في تحليل نصوص القرآن، وممن لم يشعروا بالصدمة حين اتضحت من الأرقام المسافة الزمنية الهائلة بين معطيات الخرافة وتقديرات العلم . . لقد خنقت الأفعىٰ أفهامهم حين طوقت أعناقهم»[٨].

ويقول في موضع آخر «لابد أن نلتفت أمامنا الآن. فنحن في مواجهة غارة إسرائيلية تحاول استخدام كل الوسائل لتخريب العقل المسلم المعاصر، وهي لا تكف عن ترديد الأساطير في محاولة لزعزعة يقيننا بأنفسنا . . أكثر من هذا لا يملكون دليلًا واحدًا علىٰ اتصال نسبهم بإسرائيل، أو بني إسرائيل؛ فهم مجرد لملمة تناثرت في العالم قبل عشرات القرون وتجمعت في شكل مجموعات من الشذاذ لتحقيق خطة استعمارية هي ضرب الإسلام بواسطة هذه الجيوش المرتزقة. والعجيب أنهم يسطون علىٰ التراث الإسلامي ليؤلفوا ملحمة إسرائيلية تتكامل مع العهد القديم ليبنوا لأنفسهم وجودًا ثقافيًا مؤثرًا في العقل المسلم وتاريخه»[٩].

وبسبب هذه الغارة الكبرىٰ، توجَّب علىٰ كل المسلمين الاصطفاف بحزم وصرامة لمواجهة إسرائيل؛ فيقول الشيخ «إننا نرىٰ لزامًا علينا أن نجاهد تلك الغارة الإسرائيلية علىٰ قلب عالمنا العربي في فلسطين، نجاهدها ماديًا وأدبيًا، نجاهدها إستيطانًا واحتلالًا وتأثيرًا فكريًا وإعلاميًا وسياسيًا واقتصاديًا. لابد أن نقضي علىٰ هؤلاء الغزاة

قبل أن يقضوا علينا. فقد جاءوا إلىٰ بلادنا قاتلين أو مقتولين. وسنكون نحن قاتليهم وسيكونون هم المقتولين بمشيئة الله حتىٰ نسوقهم إلىٰ حصير جهنم»[١٠].

إذن الشيخ المجاهد الذي يقف معنا في الصف ضد قوات الباطل والكفر، بل كثيرًا ما كان في أوائل الصفوف ﷺ، يرىٰ أن معركته الخاصة مع اليهود لابد أن تكون علىٰ مستوىٰ مصادر المعرفة. علىٰ مستوىٰ التراث. علىٰ مستوىٰ التفسير. لابد أن يتوجه نحو أي مصدر محتمل أن يكون قد تسلل منه اليهود سلفًا وخلفًا فيقضي عليه.

الشيخ كتب في السطور السابقة أكثر كلمات كتابه حرارة وصدقًا حتىٰ يصعب علىٰ القارئ ألا ينفعل بشدة من هذا الكلام العظيم الذي لا يكتبه إلا صادق يشتعل غيظًا من أعداء المسلمين ومرارة علىٰ أحوالهم. لكن تلك الحرارة أدت إلىٰ غلوٍ شديد رأيناه بين الكلمات السابقة حين اتهم الجميع بأنه لم يُعمِل عقله في تحليل نصوص القرآن! سترىٰ بعد ذلك أن الشيخ قصد كل من تبنىٰ قول التفسيرات التي تواضع عليها المسلمون جميعًا منذ عهد النبي حتىٰ الآن. وهي أن آدم أول البشر والإنسان!

لابد أن تفهم جيدًا هذه الحرارة الشديدة التي أدت لذلك الغلو. أن تُثمِّن تلك الحرارة وتنكر علىٰ الشيخ تلك الخرافات التي حواها كتابه وياليتها كانت قوية علميًا أو منطقيًا حتىٰ! وهو في غلوِّه ذكرني كثيرًا

بشيخه الأستاذ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته الموضوعة مقدمةً للمتنبي، والتي برغم حرارتها وصدق مشاعرها إلا أنها غالت في تضخيم الاستشراق وشيطنته والاستهزاء به كليةً، مقابل تعظيم شأن الدعوة الوهابية والجبرتي الجد فوق المعقول!

وسنحاول في النقاط التالية تقديم أبرز الملاحظات الرئيسية علىٰ الكتاب، ولن نُفرِد له مُطوَّلات لأن الشيخ قد كُتبت بالفعل ردود شرعية كثيرة عليه. ومع ذلك فهذه الملحوظات الرئيسية أجد من الضروري ذكرها مع الربط بمن أخذ عنه بعد ذلك من العلماء التطوريين وهم الهدف الرئيسي لهذا الكتاب:



أولًا:

الشيخ لا يؤمِن بنظرية التطور المتعارف عليها!

هذه هي أول صدمة ربما تُفاجئ من اتبع التطوريين الذين احتفوا بالكتاب جدًا وعينوه خلفيتهم الشرعية ولم يذكروا رؤية الشيخ كاملة ورأيه في نظرية داروين!

فيقول الشيخ بعد استعراض آراء بعض العلماء «الأقرب إلىٰ المنطق هو أن القدرة التي خلقت نوع القردة التي تمشي علىٰ أربع قد خلقت نوعًا آخر يمشي منتصبًا علىٰ رجلين وهو الإنسان، وهي القدرة التي أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحركة لكل نوع عالمه

وقدراته وبدايته ونهايته فالكل صادر عن قدرة مطلقة واحدة»[١١].

ويقول تعليقًا علىٰ صورة لحفرية القردة لوسي «لوسي حطمت النظرية الداروينية»[١٢]**!**

ثم بكل صراحة يقول: «وغني عن البيان أن كل الجهود العلمية حتىٰ الآن تنصب علىٰ معارضة داروين فيما ذهب إليه، وأن ما قدمناه لم يكن سوىٰ بعض العينات التي جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والارتقاء. حتىٰ إننا نستطيع أن نقول إن نظرية داروين قد صارت لكثرة ما تعرضت له من نقد مجرد مقولة هشة لا تعني شيئًا في مجال البحث عن أصل الإنسان وإن قدمت الكثير في مجال البيولوجيا أو علم الأحياء.. لقد سقطت إذن فكرة التطور الخالق ونقول فكرة ولا نقول نظرية، ورغم أن الناس قد فُتنوا بهذه النظرية لعدة عقود من الزمن. سقطت بكل ما ارتبط بها من أفكار أخرىٰ وانتصرت حقيقة الخلق المستقل التي قررها الدين كما أكدها العلم؛ فما كان الإنسان إلا بشرًا منذ كان وما كان القرد إلا قردًا وما كانت السمكة إلا سمكة في عالمها المائي»[١٣]!

ومثل هذا الكلام ربما لا يعرفه أنصار الشيخ ممن يتبنون رؤيته القادمة، أو ربما يكتمون هذا الجزء من كتابه أو يعتبرونه سقطة مع أنه يوضح تمامًا أن الشيخ يرفض نظرية التطور الدارويني (السلف المشترك) تمامًا لأسباب عقلانية منطقية ودينية متعلقة بقدرة الخالق. نفس كلامنا تقريبًا. فالشيخ خلقوي من هذا الوجه.

هذا ما علىٰ أنصاره -وأعدائه- معرفته. أما ما علينا توضيحه فهو أن هذا الكلام يثبت بيقين أن الشيخ كان بعيدًا جدًا عن الحقل العلمي الطبيعي ولم يُدرك حجم انتشار تلك النظرية! الشيخ يُردد كلام الدكتور زغلول النجار وفقه الله عن سقوط النظرية في الغرب ورأينا مثل هذا الكلام منسوبًا لبعض أقطاب التيار الإسلامي المصري وهي مقولة مشتهرة جدًا. تجد الكثيرين يحدثونك بيقين أن النظرية قد سقطت في الغرب تمامًا! طبعًا لا داعي لاستطراد -بعد كل ما عرضناه قبلًا- يثبت كون هذه الفكرة خاطئة بل هي غلط أو مغالطة لا داعي لها! النظرية كما ذكرنا سابقًا هي ما تواضع عليه العلماء طوال قرن ونصف وهي من المسلمات عندهم كما عرضنا. والأزمة ليست في موافقتهم بل في المنظومة الكنسية البيضاء التي يعيش العلماء بداخلها ولا يقبلون الخروج عنها. المشكلة في الفلسفة العالمية العلمية وليست في قبول العلماء أو رفضهم. هذه نظريات لن تسقط إلا بتبني جموع بابوات العلوم الحائزين علىٰ نوبل ورؤساء الجامعات لرأي كونها خرافة وفكرة لا نظرية مُثبتة ترتقي لكونها حقيقة، مما يستلزم منهم تغيير المناهج التعليمية وإعادة كتابة تاريخ الأحياء!

إننا لا نؤمن أن النظرية التي لا تُثبتها التجربة يمكن قبولها بالأسلوب الديمقراطي: الأكثرية. وهذا هو أحد الأسس العلمية لرفضنا للنظرية. ناهيك عن الأسس الشرعية. لكن الشيخ يُجاري المقولات السائدة في بعض الأوساط الإسلامية والتي قد تساند طرحنا إن تبنيناها.

لكننا لا نفعل لأنها مقولة -بكل بساطة- خاطئة ومُضللة ولا داعي لها! بل كما رأينا أنه حتىٰ التطور الإلهي الموجَّه نفسه يقابل حربًا شرسة ولا يناصره الأغلبية -بل ولا حتىٰ نصف الأغلبية- من العلماء! فكيف بالنظرية الخلقوية!



ثانيًا: ما هي نظرية الشيخ؟

هي هجين عجيب مُشوَّه من نظرية الخلق الخاص وبعض نظرية التطور!

يقول الشيخ «لقد خلق الله البشر أطفالًا أو كالأطفال بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول، ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشري بما يحتاج إليه من أدوات الكمال»[١٤].

ويقول في شرح الآية الواضحة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ **والتي تثبت وحدة الأصل من آدم وحواء:** «إن هذا البيان الإلهي نداء إلىٰ جميع الناس يذكرهم بوحدة الأصل؛ فهم جميعًا قد نسلوا من ذكر وأنثىٰ هما آدم وزوجه حواء باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات الإنسان من سلالات البشر، ولا التفات إلىٰ ما سبقهما من السلالات والأجيال»[١٥].

ويقول «لقد كان البشر خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد

مخلوقات متحركة حيوانية السلوك ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلًا في سلوكها ونضجًا في خبراتها وتلونًا في طرائق التفاهم اللغوي بينها»[١٦].

ويقول «لقد كانت ملحمة هائلة!! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها إنسانًا تتألق فيه كمالات النبوة فاختاره الله واصطفاه كما قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ **فصار آدم نبيًا.. ولقد استغرقت هذه الملحمة كما سبق أن قلنا ملايين السنين ولكنها مرت ظلامًا في ظلام أو غيبًا في غيب حتىٰ أذِن الله للصبح أن ينبلج فأشرق الإنسان من سلالة البشر واكتمل الخلق وجاء آدم!!**

ليس غريبًا أن نتصور بناء علىٰ هذا أن آدم جاء مولودًا لأبوين وأن حواء جاءت كذلك علىٰ الرغم مما سوف يلقىٰ هذا التصور من معارضة تلقائية ورفض عنيف!! وبلا تفكير!!

إن هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين، ذلك أن الخلق الذي بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطيني كان هدفه النهائي والوحيد خلق آدم»[١٧]

إذن تصور الشيخ للخلق كالآتي:

١) أن الكائنات خُلقَت كلها خلقًا خاصًا. القرد قرد والزاحف زاحف. لا أسلاف مشتركة. نظرية داروين ساقطة وخرافة والعالم تركها!

٢) أن هناك كائن خُلِق بخلقٍ خاص من الصلصال هو البشر. وهو

شبه إنسان بلا عقل ولا سمع ولا بصر!

٣) ظل هذا الكائن يتطور عبر ملايين السنين!

٤) في النهاية أنجب أب وأم من البشر آدم وقد اصطفاه الله بالنبوة والتكليف وجعله أبو الإنسان ثم تزوج امرأة هي حواء التي كان لها هي الأخرىٰ أب وأم وقد (تألقَّت!!) فيها وزوجها صفات الإنسان!

٥) من هنا بدأ عصر الإنسان المُكلَّف وانتهىٰ عصر البشر الهمجيين.

فمن من علماء التطور يقول بهذا؟

التطوريون الطبيعيون الماديون أم التطوريون الإلهيون أم الخلقويون حتىٰ! -من يقول بهذا الكلام؟!

إن نظرية الشيخ ترفض التطور في غير الإنسان، وترفض السلف المشترك -فكيف كان يظنها ستحاول التوفيق بين العلم والدين؟ ربما لأن الشيخ ﵀ كان يتصور أن النظرية التطورية قد سقطت. فإن كانت قد سقطت فلماذا سعىٰ لأسلمتها بهذه الرواية الخيالية؟

ما معنىٰ (التألُّق) هذا الذي حكىٰ عنه الشيخ وما موضعه في العلم؟ وإن كان آدم ﵇ هو الذي كان عليه العمل من الاصطفاء فالتعليم والانتقال إلىٰ مرحلة الإنسانية -فكيف حال حواء؟ لقد نسىٰ الشيخ ﵀ أنه بتفسيره هذا قد جعل حواء -التي لم تكن موضع العمل الإلهي المذكور قرآنيًا والذي أكد عليه كثيرًا- مجرد ابنة بشرية همجية لبشريين همجيين وقد تزوجت النبي آدم الذي كُلِّف من الله! طبعًا ناهيك

عن مواجهة ذلك لحديث النبي عن خلق حواء من ضلع أعوج وهو ما أوله الشيخ للمجاز لا للحقيقة!

ونسي الشيخ -الذي يؤمن مثلنا بأممية المخلوقات والحيوانات وتمتعها بالعقل وأفرد لذلك موضعًا في كتابه- أنه قد جعل في الأرض ذات لحظة أممًا من الكائنات والمخلوقات تعقل كلها، طيور وزواحف وقردة -إلا الكائن البشري الهمجي!!

ثم يمضي الشيخ في سرد طويل وجديد لقصة الخلق اضطر فيه لتقديم تأويلات ظاهرة الضعف والركاكة مثلما فعل مع أقوال الملائكة وكون قابيل أول القاتلين فيقول عن هذه الحادثة «لم يكن قتل قابيل لهابيل إلا استئنافًا لسفك الدماء في العهد الإنساني»**! ثم يقول بعدها تعليقًا عن حديث النبي الصحيح في البخاري والنسائي (لا تُقتَل نفس ظلمًا، إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل) التعليق الآتي:** «يشير أيضًا إلىٰ موضع ذلك الجرم من المسئولية فقبل ارتكاب هذه الجريمة لم تكن هناك مسئولية عن قتل النفس»(١٨). **وهذا تفسير يصطدم بالحديث الذي ذكرناه قبلًا أن الله سيحشر كل الوحوش والبهائم وستقتص الحيوانات من بعضها البعض علىٰ ما صنعته من ظلم! بنظرية الشيخ فإن البشر (كائنات ما قبل آدم) لن يُحشروا حتىٰ مع الوحوش أو الذباب! ولا قصاص بين بعضها البعض أصلًا لأنه لم تكن هناك (مسؤولية)! فبهذا التأويل الركيك ذهب الشيخ لصرف حديث النبي عن ظاهره!**

وهذا الصرف للظاهر شيء والسرد الطويل لغيبيات خيالية ساذجة شيء آخر! مع أن الشيخ يرفض ويذم السرد المُعقَّد للغيبيات ويقول منتقدًا علماء بني إسرائيل الذين يعتبرهم أصل التفسير الإسلامي للقصة القرآنية للخلق: «كل ذلك مضىٰ في الغيب فكيف اطلع عليه هؤلاء القُصاص من بني إسرائيل؟! وكيف سلم العقل الإنساني لحكاياتهم بهذه البساطة؟!»[١٩].

تخيَّل أن الشيخ بعدما قال هذا وذم علماء بني إسرائيل لهذه العلة ملأ كتابه بمثل الآتي: «وليس ببعيد أن نفترض أن الخالق.. قدر سبحانه فناء كل البشر من غير ولد آدم وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة حتىٰ تتم إبادة جماعات الهمج البشرية»[٢٠]**! ثم بعدها بأسطر قليلة يقول**: «كيف استهلَّ ذلكم العهد؟! ذلك ما لا سبيل إلىٰ تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ولا دور أيضًا للخيال في رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب فذلكم مشهد غيبي تم قبل الزمان الإنساني بزمان إلهي»**!**

ويقول «ولو أننا تصورنا حياة الصدام والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق فإن ذلك يعني أن العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هي القوت اليومي.. وقد كانت هذه العلاقات تتنامىٰ دائمًا كمًا وكيفًا»[٢١] **الشيخ يستعمل كثيرًا كلمات مثل لو أننا تصورنا. ليس ببعيد. إلخ. ثم بعد ذلك يُكمل بناء قصة كاملة وسرد طويل بناءً علىٰ تلك المقدمة: لو أننا تصورنا!!**

ثم في الباب الثاني ينسىٰ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **كلامه ويطلق عليه هذا العنوان:** (وقائع القصة)**! سيحكي الشيخ قصة الخلق الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد!**

فنجد الباب مزدحمًا بقصة جديدة مليئة بالتصوير والحكي لأمور غيبية وكل ما عارضها من قرآن أو سنة تم تأويله وصرفه عن ظاهره أو حتىٰ تأويله القريب إلىٰ أبعد تأويل ممكن يخدم مسار الرواية التي تصورها الشيخ! بمعنىٰ أن الشيخ قد رفض تفسيرات علماء بني إسرائيل (وهم أهل كتاب عندهم شبهة وحي) لعلة أنهم لم يطلعوا علىٰ الغيب وتفسيراتهم ساذجة لا توافق العلم لحديث -ثم قرر هو عرض قصة من الغيب لا وحي فيها بل تصطدم بظاهر القرآن والسنة صراحةً ولم يقل بها أحد قبلًا لا من علماء الشريعة أو التفسير ولا من علماء الطبيعة أو الأحياء -ولم يشعر بتناقض!

وبالطبع كل هذه التفسيرات والسرديات لم يسبقه إليها أحد من الأقدمين لا بسبب أنها منسوجة بقماش عجيب وغريب من التأويلات الخيالية للتفرقة بين البشر والإنسان -بل للسبب الآتي: «لقد خفيت هذه التفرقة علىٰ أجيال العلماء من قبل، سواء القدماء والمحدثون، بعد أن طغىٰ طوفان الإسرائيليات وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم والخلق حتىٰ تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة»[٢٢]**!!**



ثالثًا:

ما هو المنبع الرئيسي لكل هذا الكتاب؟

هو الغلط الذي وقع فيه الشيخ عندما نسب كل التفسيرات المنقولة عن خلق آدم وخطواته إلىٰ الإسرائيليات. فمن هذه النقطة انطلق الشيخ يهاجم ويخترع النظرية المتضاربة التي عرضناها. والمُفترض هنا أن الثابت الذي مر عليه الشيخ سريعًا في المقدمة هو كون الصحابة لم يعرفوا قصة الخلق سوىٰ من القرآن فقط وبلا شرح كافٍ من النبي. فهل هذا الكلام صحيح؟

جاء في حديث عمران بن حصين الشهير في البخاري: أنه قد (جاء نفر من بني تميم إلىٰ النبي ﷺ؛ فقال: يا بني تميم أبشروا. قالوا: بشرتنا فأعطنا! فتغير وجهه؛ فجاءه أهل اليمن؛ فقال: يا أهل اليمن، اقبلوا البشرىٰ إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قبلنا! فأخذ النبي ﷺ يحدث بدء الخلق والعرش؛ فجاء رجل فقال: يا عمران راحلتك تفلتت، ليتني لم أقم!).

وفي اللفظ الآخر قال رسول الله ﷺ: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه علىٰ الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض.) ثم قام عمران بسبب راحلته ولم يلحق باقي قصة بدء الخلق.

فهذا الحديث كضوء البدر في إيضاح غلط الشيخ وتوهمه.

فالنبي ﷺ قد روىٰ قصة بدء الخلق منذ البداية بل منذ خلق السماوات والأرض بل منذ وجود الله القديم وحده قبل حدوث العالم وحدوث المخلوقات. وبالتالي فالصحابة قد سمعوا هذه الرواية كاملة من النبي. فحين يروي ابن عباس رضي الله عنهما قصة خلق آدم ويُذكر في الترمذي حديثًا عن خلق آدم، حيث قال رسول الله ﷺ: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزَنُ والخبيث والطيب). فمن غير اللائق أبدًا أن يقول الشيخ منتقدًا وساخرًا تلو ذكر قول ابن عباس وهذا الحديث الصحيح: «علىٰ هذا مضت كل كتب التفسير تقريبًا، مع انطواء الرواية علىٰ كثير من صور السذاجة. مثل أن يقال أن خلق آدم تم في السماء وأن ملك الموت هو الذي استطاع أن يأخذ التراب من الأرض وأن يعجنه ويخمره فلما خلقه الله أو صوره ألقاه علىٰ باب الجنة. ويستمر الكلام في هيئة سيناريو يصف لنا ما جرىٰ في ذلكم الأزل الأدمي فيجعل التراب خليطًا من ألوانِ الأرض ليكون أبناء التراب علىٰ ألوانها المختلفة وخليطًا من أنواع التراب إلىٰ تنوع الأخلاق. وهكذا. كل ذلك مضىٰ في الغيب فكيف اطلع عليه هؤلاء القُصّاص من بني إسرائيل؟!!»[٢٣].

هنا الشيخ قد ربط قول ابن عباس رضي الله عنهما والسرد المذكور عند الترمذي في حديث صحيح عن النبي ﷺ- بقُصَّاص بني إسرائيل!

وقد روىٰ أئمة التفسير وابن عباس أولهم رحمه الله هذا الكلام في عهد

الآلاف من الصحابة؛ فكيف مرروا قوله وتفسيره -الذي يصفه الشيخ بأنه ينطوي علىٰ صور ساذجة كثيرة!- إن كان الصحابة قد ثبت أنهم قد سمعوا قصة الخلق من النبي ﷺ؟!

لو كان النبي قد حكىٰ السرد الذي سيقدمه الشيخ عبدالصبور (صلصال-بشر همج يتطورون-أدم-إنسان مُكلَّف) والذي يُصرِّح فيه أن آدم ليس هو المخلوق من صلصال وليس هو أول الخلق؛ فلماذا لم يقف الصحابة لابن عباس رضي الله عنهما ليخبرونه أن هذا النقل ليس بصحيح وأن رواية رسول الله فيها أب وأم لآدم وليس فيها خلقٍ خاصٍ لحواء إنما هي من أب وأم همجيين وتعارفت علىٰ آدم وتزوجت كأي زواج طبيعي؟!

لماذا سكت الصحابة علىٰ قول الإمام ابن عباس إن كان خاطئًا؟

الجواب: ببساطة لأن رواية الإمام لم ينقلها عن إسرائيليات. بل هي مرفوعة إلىٰ النبي ﷺ من روايته التي تواترت بين الصحابة عن قصة الخلق بأكملها فلم يجدوا في قوله مخالفة لما حكاه النبي. هل تجد تفسيرًا منطقيًا آخر؟! هل يُعقَل أن يكونوا قد اتفقوا جميعًا علىٰ تمرير تفسير يخالف ما سمعوه من النبي في قصة الخلق؟ حاشاهم!

وفي الحديث الصحيح المُتفق عليه يروي رسول الله ﷺ رواية تضرب نظرية الدكتور من وجهة أخرىٰ؛ فيقول النبي: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم علىٰ أولئك من الملائكة؛ فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك. فقال السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله؛ فزادوه: ورحمة الله. فكل من يدخل

الجنة علىٰ صورة آدم؛ فلم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن).

الشيخ إذن يعتبر أن الهياكل العظمية التي تم اكتشافها هي لكائنات بشرية ضئيلة سواها الله حتىٰ صارت إنسانًا هو آدم. فكيف لهذه الكائنات الضئيلة أن تنجب كائنًا طوله ستون ذراعًا؟ وإن كان هذا من قدرة الله مُخصصة لآدم لأنه كان موضع العمل فكيف تزوج امرأة عادية طولها بشري عادي وابنة بشر عاديين همجيين؟!

طبقًا لنظرية الشيخ فلابد أن يكون ما قبل آدم مجموعة من العمالقة حتىٰ ينجبوا هذا الكائن العملاق الذي اصطفاه الله. لكن تظهر مشكلة! أن الحديث ظاهر في كون آدم قد خُلِق بهذا الطول! أي أنه منذ خلقه طوله ستون ذراعًا! فكيف جاء لأبوين بشريين قزمين كما توهم الشيخ؟ أم أنه جاء من أقزام وطوله ستون ذراعًا؟ لن أتحدث عن قوله (ثم قال: اذهب فسلم.) وكون هذا يعني أن آدم نُفخت فيه الروح فتحرك نحو الملائكة ممتثلًا لأمر ربه مما ينفي عنه كونه قد مر علىٰ مراحل الطفولة والمراهقة. لن أتحدث لأن المعترض سيهتف هنا: لكن (ثم) تجيء للتراخي وبالتالي يمكن تأويل الحديث أن ثم قد جاءت بعد خلقه بطول ستون ذراعًا بعشرين عامًا مثلًا! ما أكثر التأويلات الخرافية!

ضع كل هذا بجوار وصف الشيخ لبحثه أنه «لم يخرج قيد أنملة عن المعنىٰ القرآني. وهو لا يتناقض في نتائجه مع أي حديث صحيح في السنة المحمدية أكان ذلك نصًا أم تأويلًا»[٢٤]**!!!**

حسنًا! ها قد رأىٰ القارئ حجم التضارب وحجم الغلط حتىٰ في

النقطة الأصلية والمنبع الرئيس الذي انطلق منه ليكتب بحثه هذا بالكامل!!

فلا الرواية المذكورة للخلق كلها من الإسرائيليات. ولا النبي غيَّب عن الصحابة قصة الخلق منذ بدء الكون وحدوث العالم. ولا السنة تخلو من أحاديث صحيحة عن النبي فيها شرح واضح لقصة الخلق. ولا الإمام ابن عباس نقل من الإسرائيليات تاركًا الوحي. ولا الصحابة يُعقل أن يكونوا قد اتفقوا علىٰ السكوت عن تفسير الإمام ابن عباس المُخالِف لرواية النبي!



رابعًا:

كل تنظير الشيخ قائم علىٰ إثبات أن الوحي لم يستخدم كلمة البشر في وصف الإنسان المُكلَّف. وكان حل معضلة بعض الآيات التي واجهت الشيخ وعرضناها سابقًا في الفصل الأول هو ما ذكره الشيخ بأن بين لفظ البشر ولفظ الإنسان عموم وخصوص. وحتىٰ في هذا الرأي تضارب ولم يُقدِّم أدلة قوية اللهم إلا مزيد من التأويلات الملتوية العويصة!

وقد غلط الشيخ كما ذكرنا سابقًا. ففي الحديث الصحيح المتواتر والمذكور في البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد والنسائي وأكثر كتب السنن، يقول النبي -بلفظ البخاري: (يُجمَع المؤمنون يوم القيامة

فيقولون: لو استشفعنا إلىٰ ربنا فيريحنا من مكاننا هذا؛ فيأتون آدم فيقولون له: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلىٰ ربنا حتىٰ يريحنا). وهذا حديث متفق عليه ثابت في كتب السنن.

والنبي هنا يذكر صراحةً أن آدم أبو البشر. وهو ينقل عن غيب يوم القيامة؛ فلا يجيء إلا من وحي فقط. وفي هذا الغيب -يوم القيامة- يسمي الناس أدم صراحةً أنه (أبو البشر). وينقل هذا عنهم النبي ولا يُخطِّئهم -إن اعتبرنا أنهم لم يكونوا يعلمون أن أدم إنسان وليس بشرًا كما اعتقد الشيخ!- فالنبي يعلم يقينًا كون قولهم خطأ أم صواب فلم يقل أنهم أخطأوا -كل هذا باعتبار صحة نظرية الدكتور!- فإما كلام الدكتور صحيح والنبي لم يوضِّح الخطأ أو أن هذه النظرية تنسب للنبي عدم العلم بمثل هذه القضية الخطيرة والعياذ بالله!

❋ ❋ ❋

أخيرًا. فهذه الملاحظات السريعة هي أبرز ما أحببت أن أبينه تعليقًا علىٰ الكتاب. وأعتقد أنه من استقراء متعمِّق لها سيدرك المرء مدىٰ هشاشة طرح الشيخ أولًا. وحجم صدامه مع الوحي بشقيه ثانيًا. وحجم صدامه مع العلوم البيولوجية بكل أنواعها (التطورية-الخلقوية) ثالثًا! وأخيرًا حجم صدامه مع المنطق. وربما أكبر صدام هو مع تلك المجموعة من الأسئلة الرئيسية: كيف لم يبين النبي هذه القصة المعقدة عن مرحلتي الخلق ولم يحكها للصحابة وتركهم يلتبس عليهم الفهم

فيظنون أن آدم أول الخلق من صلصال وأن حواء مخلوقة من ضلعه؟ كيف تُركت هذه الآيات بلا توضيح للنبي وبلا توضيح للصحابة وجعلتهم يعتقدون معتقدًا خاطئًا في نشأة الكون؟

كيف وكيف وكيف! لماذا ولماذا ولماذا!

كل هذا من أجل سعي لهدف نبيل وهو رد كيد اليهود وأذنابهم العلمانيين. لكن كيف نرد الكيد؟ بالمغالاة وطغيان نظرية المؤامرة علىٰ المرء حتىٰ يطعن نفسه بخنجر شكًا في هوية أعضاء جوفه؟!

غفر الله للشيخ غلطه الذي فتح بابًا كبيرًا للشر. ويا ليته لم يسقط في فخ كتابة بحث ضعيف كهذا حتىٰ إنه ينقل فيه خبرًا علميًا من جريدة الوفد ويضعها كمصدر ويعتذر عن ذلك في الهامش لأنه «لا يتوافر لدينا مؤلف نعتمده في توثيقها ومع ذلك فنحن نذكره في إطار أنه خبر ظني الدلالة»[٢٥]!!

أخيرًا. نؤكد أن الأمر لم ينته هكذا. مازال هناك الكثير للحديث عنه. والمنهج سيصنع مشاكل أكبر من هذا لو استمر بلا مواجهة كبرىٰ حاسمة تظهر عواره وكارثية تطبيقاته وفساد منتوجه. الصحيح أن هذه ليست النهاية ولن تكون. بل هي البداية لما هو أشد مرارًا!



هامش الباب الثالث

• الفصل الأول:

(١) كيف بدأ الخلق: ٣٥٣.

(٢) السابق: ٣٥٢.

• الفصل الثاني:

(٣) تفسير ابن كثير: ٦/ ١١٣.

(٤) تفسير القرطبي: ٣٦/١٣.

(٥) تفسير القرطبي: ٢٢٩/١٩.

• الفصل الثالث:

(٦) كيف بدأ الخلق: ٢٧٣-٢٧٤.

• الفصل الخامس:

(٧) أبي أدم. د. عبدالصبور شاهين: ١٧.

(٨) السابق: ١٧.

(٩) السابق: ٢١-٢٢.

(١٠)السابق: ٢٣.

(١١)السابق: ٤٢.

(١٢)السابق: ٤٥.

(١٣)السابق: ٤٦.

(١٤)السابق: ٩٧.

(١٥)السابق: ١٠١.

(١٦)السابق: ١٠٧.

(١٧)السابق: ١٢٢.

(١٨)السابق: ١٤٠.

(١٩)السابق: ٩.

(٢٠)السابق: ١٠٥.

(٢١)السابق: ١٢٨.

(٢٢)السابق: ١١٩.

(٢٣)السابق: ٩.

(٢٤)السابق: ١٧.

(٢٥)السابق: ٣٦.



لا ختام. فلا تتأخر!

مع وصولنا لنهاية هذا الكتاب كان لابد من التنبيه علىٰ هذا العنوان والتأكيد علىٰ ضرورة أن يعيه كل مسلم: أنه لا ختام لتلك المعركة في صورتها المجردة: معركة المعرفة.

معركة المنهج المعرفي الذي أفسد وخرَّب في عقول المسلمين منذ عصر اضطرابات ما بعد الترجمة، منهج تعديل وتلفيق وتأويل الوحي ليتناسب مع المنتوج المعرفي الغربي أو غير الغربي.

لقد كانت الفلسفة اليونانية منتوج معرفي غربي تلقاه بعض علماء السلف أولًا بالقبول انبهارًا بآلة المنطق الأرسطي والغوص في تفسير الكون والألوهية غوصًا دفعهم لقلب المثلث الإسلامي فصار كل وحي لابد من تأويله أو تعطيله لموافقة ما ظنوه (القواعد العقلية الضرورية) والتي لا يعارضها إلا مُقلِّد لا يُفكِّر. فهذا المنهاج الممتد في تاريخ المسلمين ليس بالجديد إنما زاده رسوخًا وقوةً في القرون الأخيرة ذلك التفوق الحضاري والعلمي والمعرفي بشكل عام للإثنية الغربية.

وقد كان من الخطأ مناقشة الداروينية دون التطرق إلىٰ منهاج من سعوا إلىٰ أسلمتها ودون توضيح أن الأزمة مجردة هي أوسع بكثير من مجرد خلاف في تأويل أو تفسير. بل هي ما وضحناه في الفصل الأول:

منهج تحكيم العلم الغربي بمنطلقاته الحالية علىٰ الوحي لمقصد نصرة الدين.

وإن كانت العقلانية لم تعد بالضرورة مرتبطة بالعلم مما جعلها تصير في زاوية ثالثة لتكمل أضلاع ذلك المثلث. فأضعف زواياه صار هو الوحي! إن ما رأيناه لا ينطبق فقط علىٰ الداروينية بل ينطبق علىٰ فلسفات غربية كثيرة: كالليبرالية المُطلقة والاشتراكية المتعصبة والتي تم بشكل مؤلم تعديل الوحي كي يلائمها وما لم يوافقها تم تأويله أو -بكل بساطة- رده أو تجاهله! هذا هو المنهج في شكله المجرد وهذه هي الأزمة الواقعية التي يدور فيها كثير من المسلمين.

وكما سعىٰ الفلاسفة والمعتزلة قبلًا لنصرة دين الله عن طريق الغلو في التأويل والتعطيل ورد السنة، فقط لموافقة العقل الفلسفي -فإننا قد رأينا مروجي تلك النظرية يسعون جاهدين بإخلاص لما يظنونه نصرة لدين الله ويقعون فيما وقع فيه سلفهم من أصحاب المنهج المأزوم!

لم ينتهِ هذا قبلًا ولن ينتهي عما قريب. ألم يقل بعض الناس ردًا علىٰ من طلب منهم ألا يفسدوا في الأرض: ﴿نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. فأخبرنا الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟ وأنا نظن أن من وقع في مصيبة الترويج لهذه البدعة ظانًا في نفسه الإصلاح داخل في هذه الآية. فنسأل الله له الهداية والرشاد.



ولأن البعض للأسف يحلو له وصم العلماء المسلمين الذين يؤمنون بالخلق المباشر بالرجعية وعدم مجاراة كافة العلماء في جميع أنحاء العالم. فنحن نطلب منهم أن يبحثوا في شبكة الإنترنت عن قوائم العلماء الرافضين للتطور من كافة أنحاء العالم، وإن كان كثير منهم يؤيد الخلق المباشر بالصورة التوراتية -والعلماء هنا أقصد بهم كل من ينتمي إلىٰ الحقل العلمي من بيولوجيين وجيولوجيين وأطباء وفيزيائيين وكيميائيين سواء كانوا من الباحثين أو الأساتذة الحاصلين علىٰ الدكتوراة- ولا يصح التحجج بأن قائمة العلماء المؤمنين بالتطور أطول؛ فليست المسألة ديمقراطية كما أوضحنا سابقًا مما قد يجعل صحة النظرية تتحدد وتنتهي إلىٰ الأبد بحجم الأغلبية (موافقة أو غير موافقة)! بل ما يهمنا هو أن نظرية الخلق المباشر هناك من يؤمن بها من الأساتذة والعلماء العالميين. وتاريخ العلم لن يتوقف اليوم حتىٰ يؤمن البعض بما يقوله الأغلبية فقط!

كما أن إيمان هذه المجموعة بكامل رواية الخلق التوراتية (خلق السماء والأرض) يعني الإيمان ببضع أخطاء ومغالطات علمية؛ فلا يلزمنا الإيمان بكل ما يؤمنون به من الرواية، وما استدلالنا هنا بهم إلا في معرض الرد علىٰ من يدعي عدم وجود علماء يؤمنون بالخلق المباشر في الغرب مُطلقًا، وليس كحجة لنا تساند إيماننا؛ فلو أجمع الغرب والشرق علىٰ مخالفة القرآن ما تبعناهم لحظة وما اهتز يقين المسلمين. لكن ماذا نفعل والبعض يصر علىٰ رؤية أسماء عالمية غير

مسلمة تساند النظرية الخلقوية حتىٰ يعطيها بعض المصداقية؟

❁ ❁ ❁

لابد إذن من التفرقة بين هذه الرؤىٰ من الناحية الشرعية:

١) الرؤية الأولىٰ هي رؤية د.عبدالصبور شاهين. لا يوافقه عليها أحد من العلماء وهي مزيج عجيب غير مسبوق من الخلقوية والتطورية. فهذه نظنها والله أعلم خرافة لا دليل عليها إلا التأويلات الخيالية وأفسد الشيخ من حيث يرغب في الإصلاح.

٢) الرؤية الثانية وهي رؤية التطوريين الذين أخذوا استدلالات الشيخ الضعيفة وجعلوها عمادهم الشرعي وأسقطوا منها رؤيته الخلقوية وظنوا أن نظريتهم قد اكتملت بما ينقصها بعد محاولات اعتقدوها ليست في قوة حجج الشيخ. وهي رؤية تطورية عن الخلق من خلية واحدة ثم أسلاف مشتركة ثم الإنسان إلخ إلخ. وهؤلاء نظن بدعتهم أوضح وأشد والله أعلم.

٣) الرؤية الثالثة وهي رؤية الخلقوية المتميعة التي تتسامح مع النظريتين السابقتين ولا ترىٰ بأسًا في قبولهما وترفض تبديع القائلين بهما.

٤) الرؤية الرابعة وهي وجوب مناهضة ما يناقض القرآن والسنة ووضع الوحي بالأسفل ونحسبهم أهل الرشاد إن شاء الله.

ولابد كذلك من التفرقة بين المؤمنين بالخالق من ناحية قبولهم للعلم:

١) فهناك من يؤمن بالتطور في الحيوانات ولكنه يؤمن بالخلق الخاص للإنسان.

٢) وهناك من يؤمن بالتطور في كل الكائنات فهذا نحسبه مبتدعًا ولا أظنها موطن خلاف بين أهل العلم.

٣) وهناك من يؤمن بالخلق الخاص لكل الكائنات وهذا نؤيده لكننا نرفض من يتعصب ويغالي فيجعل حتىٰ الصنف الأول (الذي لا يؤمن بالخلق الخاص للحيوانات لكنه يؤمن به للإنسان) من المبتدعة ويجعل الصنف الثاني من المرتدين لا من المسلمين الواقعين في بدعة!

فالمسلم الراشد بين الإفراط والتفريط. الذي يؤمن بوجوب عدم التفريط في مواجهة هذه البدعة وخطأ تكفير القائلين بها.

والمسلم الراشد هو من يواجه ويعرف أصول مواجهته مجردة. مواجهة مع المنهج ككل ومع نواتجه الجزئية.

وإن كل مسلم عالم أو صاحب علم (مفكر أو مثقف أو طالب علم شرعي) عليه أن يبذل كل ما بوسعه لمواجهة هذا الطوفان الضخم من (علمنة المعرفة الإسلامية) أو (لي عنقها) لموافقة المنتوج المعرفي المتفوق حاليًا. وأن يسعىٰ جاهدًا في هذا ولا يتكل علىٰ غيره في دول وظيفية محكومة أصلًا بمنظومة خادمة معرفيًا وعلميًا وعسكريًا وثقافيًا واقتصاديًا. عليه أن يبذل قصارىٰ جهده وألا يخشىٰ المواجهة فهي نصيبه من الجهاد في تلك الحرب الكونية الكلية الكبرىٰ وجزئياتها

المتناثرة في الأمة تاريخيًا وجغرافيًا ومعرفيًا.

لابد أن تشارك كصاحب علم وبنية سليمة لتصحيح الانحرافات العقدية والمعرفية الإسلامية. وهذا ثغر واجب علىٰ المسلمين الثبات فيه بأقدام راسخة.

هذه معركة لن تنتهي.

فلا تتأخر عن خندقك!





فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الباب الثالث: حاكمية الوحي